

رواية

السعيد الخيز

# قطف الحيس



كاتب  
BAYAN PUBLISHING

# قطف الجمر

## رواية

### السعيد الخيز

قطف الجمر  
رواية

تأليف :

السعيد الخيز

تصميم الغلاف:

أحمد مراد

مراجعة لغوية:

سيد عثمان



رقم الإيداع: 2017/11665

التقديم الدولي: 5-035-820-977-978

إشراف عام:

محمد جميل صبري

تيفين التهامي

\*\*\*

كيان للنشر والتوزيع

22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: 0235611772-0235688678

هاتف محمول: 01005248794-01000405450-01001872290

بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com - kayanpub@gmail.com

الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

جميع الحقوق محفوظة. وأني القياس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية أو بآية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

# إهداء

إلى ابنتي حبيبتي ملاك ولينة..

مع عشقٍ أبديٍّ..

# قطف الجمر

الزمن يسيل عبر الأصابع، يتدفق بين الأيام كشلال هادر ومستمر، تجمع كفك كأنك تستجمع ما تبقى من أطراف الأوقات لتكوّن منها فترة قابلة للحياة على صدر الأحلام، تقبض على شيء هلامي لا شكل له ولا طبيعة، تسميه القبض على الأمل المتأخر دومًا بسبب سوء الأحوال العاطفية، تداهمك فكرة على حين غرة وتسيطر عليك حتى تعتقد أنها الفكرة الوحيدة في الوجود، ولكنها ليست إلا جزءًا صغيرًا من وعيك بالوجود، خطورة الكلمات تكمن في كونها ذات حمولات متفجرة، كل ضغط على مستوى الجملة قد يؤدي إلى انفجار ذري، فينشطر القلب شظايا دامية تنتشر في نواحي الحياة، أما الحب فيتسرطن مع الزمن وتظهر أعراض ذلك متأخرة بعد سنوات، هكذا يسيل الزمن.

اللوثات التي أصابتنني في حياتي وغيرت مجرى الأحداث لوثات عادية، صغيرة، ولكن ككل لوثة كانت معدية وانتشرت في كل نواحي حياتي؛ لوثة الحب، لوثة الأرق، لوثة الكتابة، لوثة الذاكرة المثقلة. الحب صرعني وأرداني قتيلاً، والأرق حرقني فتيلًا مشتعلًا طوال الليل، والكتابة ما زلت أبحث لها عن تشخيص فأعراضها تتشابه مع أعراض الإدمان على الحشيش، أما الذاكرة المثقلة فما زلت أفرغها من الألم وأظل أسامح وأسامح وأحتاج كل طاقة الدنيا لأسامح، وما زلت أحاول ذلك.

أجد نفسي ومعني أشياء كثيرة حولي؛ معني حزني المؤبد المحكوم برفقتي، معني صداقاتي العميقة حد التطرف، معني حروفي الهوجاء اللعينة؛ معني

روحي الناعسة القلقة المتوردة الحضور، معي الهواء المكتظ بصمتي، معي  
كتبي ولوحاتي، معي فكرة الصحراء والبحث عن ذاتي، من يريدني فليتحمل  
كوني المثلث بي وبأشياء العميقات.

لقد حاربت طوال حياتي، منهج العفن، ولكنني أشعر بأني كائن متعفن رغم  
ذلك.

متعفن جدًا لدرجة قد أشتري في ظرف يومين سيارة «داسيا» ومنزلًا في  
مدينة شاطئية. وأرهن عمري ديونًا وتتحكم السلطة في حياتي، وأدفع من  
القادم ثمن الحاضر، ولكنني سأبدو متعفنًا برجوازيًا قديمًا تملؤه الوسوس  
والعلامات الدالة على الغباء. سأكون نسخة طبق الأصل للمكعبات التي صنعها  
النظام التعليمي والاستهلاكي، حتى أبنائي سأعلمهم كيف يصبحون  
استغلاليين ونفعيين وسأوجههم فقط لدراسة الطب أو الهندسة. فقط.  
وسأبعدهم عن الشعر وما يسمى في طبقتنا المنمطة بالسياسة، كتهمة خطيرة  
قد تلحق الموظف الحكومي، سأرتدي قميصًا مكويًا بعناية وربطة مزركشة،  
وهذا أصل العفن المستشري بين المعلمين مثلي، المعلمون الذين يكرهون  
الكتاب ويعلمون الحروف فقط، الذين يتشبثون بالمقرر الدراسي كمنهج  
حياة.

ما دمت أدخل إلى المقاطعة الحضرية ولا أحتج على تأخير الخدمات ولا  
ألاحظ الميز العنصري بين الناس، ما دمت لا أغضب من تلميذ نسي إنجاز  
تمارينه المنزلية، ولا أستدعي ولي أمره، ما دمت أستطيع أن أستمع للنقاش  
النقابي العقيم للمعلمين في المقهى، وما دمت أملك صبرًا لانتظار الحافلة،  
وإن لم تحضر أنتظر غيرها وإن حدث وتأخرت أنتظر أيضًا، فأنا متعفن.

انتظرت حتى دق جرس الخروج، جمعت أشياءي المكلمة، آه كم تستعبدنا الأشياء.

واضح جدًا أن الأشياء تملكنا بقدر ما نملكها، أن تسير دون هاتف ودون ملحقات تواصلية أصبح مبتغى، غريب كم تملكنا الإكسسوارات، كلما أردت الخروج من البيت أبحث عن خاتمي الفضي الذي أهده لي صديقي، الشال الأزرق الصحراوي المهدى من زوجتي، عطري المفضل، حاملة المفاتيح بكل المفاتيح المستعملة منها والتي لا قفل تفتحه، ساعتى اليدوية الثقيلة التي لا تعمل القادمة من سوق الوقت المتوقف، لا يهم أن تعمل فهي ليست وظيفية، أنا اعتدت ارتداءها فقط؛ لأنها تذكرنى بصديقي الذي ما زلت متشبثًا به بقدر تشبثي بالساعة، وإلا فالهاتف يكفي ليدلني على الوقت، بل هاتفان؛ واحد ذكي للتواصل الاجتماعي وواحد غبي أستعمله كمنبه وكاحتياطي، المناديل الورقية أيضًا تتشبث بي أضعها في جيبى أتوماتيكيًا، فأنت لا تدري متى تدخل مرحاضًا عموميًا تحتاجها فيه، كيلو جرامين من الأشياء المتعلقة بك، لا تدع لك فرصة لتسير وحدك بل أصبحت جزءًا منك تشعر بفقدانه أنك فقدت عضوًا من أعضاء جسمك، الأشياء تملكنا وتستعبدنا، هواتفنا حواسيبنا وحتى مناديلنا الورقية. الآلة والاستهلاك وقوة الإشهار والمناعة الفكرية البئيسة والإرادة الضعيفة تجعلنا عبيدًا للجمادات.. غريب..

جمعت أشياءي وانطلقت مسرعًا من المدرسة على دراجتي الهوائية، كان الوقت مساءً، كنت أسابق الريح، تغمرني مشاعر مختلطة بين الغبطة والحزن والفرح والخوف وشيء من الارتباك، أسابق الريح بأقصى سرعة بهذه الدراجة القديمة، أردت أن أطير بها، شعرت بتصلب في عضلات ساقِي على

الخصوص، بسبب نزول مقعد الدراجة إلى أدنى مستوى لأسباب ميكانيكية، لا يهم ذلك، كل منعرجات المدينة مررت منها بسلاسة وبسرعة كلاعب كرة قدم يراوغ دون أن يمرر الكرة لأي لاعب، ولأني أحفظ في ذاكرتي كل دروب المدينة ومسالكها المختصرة فقد كنت مثل سمكة أسبح في طرقاتها، والمدينة من عاداتها كلما رأيتني في حالة كهذه تيسّر لي أمر المرور، والأسوار كذلك تفتح أبوابًا جديدة غير الأبواب التاريخية القديمة، يُفتح بابٌ هنا وبابٌ هناك، أمرٌ من الأول فيظهر لي الباب الثاني مستعدًا لاستقبالي، كل الطرق متعاونة، حتى الأحجار تتحاشى التعثر بي، والحفر تتجنبني، والبرك تتحاشاني، وأنا منطلق سعيد بتعاون الأشياء معي، بتعاون الأمكنة، الطرق، الأسوار، الأبواب القديمة، القصبات الطينية، ملتقى الطرق المؤدي إلى المستشفى فارغ أو ربما تعاون معي شرطي المرور، إن كان هذا ما حدث فعلاً فهذه أول مرة تتعاون فيها السلطة معي منذ ولادتي.

ولادتي لا أتذكرها، لا أتذكر حين كنت حيوانًا مجهرًا ينساب بين المسالك، هناك ربما تعلمت المراوغة كما أفعل الآن، فأصلي حيوان له ذيل ورأس يجري نحو بويضة شهية، وأنا كذلك اليوم أجري وكلي أذيال.

مستشفى بول شاتينير PAUL CHATINIERE الرجل العسكري الفرنسي الذي خلع لباس العسكر وانخرط في العمل الإنساني كطبيب، حارب داء التيفود في مدينة تارودانت\* التي رفض مغادرتها، فأصيب بالعدوى وتوفي سنة ١٩٢٨، ومازال قبره شاهدًا عليه، كذلك متحف المستشفى. مع مرور الوقت اكتسب هذا الرجل احترام المدينة كلها، سأحترمه أنا أيضًا، سأحترم أنه بقي يعالج مرضى المدينة من الفقراء والمساكين، ولم يغادر إلى بلده، سأحترم

أيضًا أنه ترك العمل العسكري كطبيب عسكري رافق المستعمرين، وانخرط في العمل المدني كطبيب، سأحترمه الآن أكثر لأن هناك ستلد زوجتي طفلنا الأول.

تركت دراجتي عند حارس الدراجات، أخذت عنها تذكرة صغيرة ورميتها في جيب سترتي بعدما أوصيت الحارس بالعناية بها ريثما أقضي لنفسي غرضًا بالمستشفى، ورغم التوصية وضعت قفلاً حديدياً كاحتياط، وقلت في خشوع: «أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه». هنا فقط شعرت بالاطمئنان على دراجتي التي تصدر أكثر من صوت وأنا أسير عليها. لن أحكي الآن قصة دراجتي وعلاقتي بها، ولا حجم

المسافات التي قطعتها بين البيت والمدرسة وسوق الخضر

---

\* مدينة تاريخية بجنوب المغرب.

والدواجن وعدد الأشياء التي يمكنني حملها عليها، في تارودانت حتى لو كنت تملك سيارة ستلزمك دراجة، وهذا ما يكتشفه الوافدون عندما يقضون شهورًا بها، في البداية يتعجبون من عدد الدراجات التي تجول المدينة والازدحام الذي تسببه ولكن مع مرور الوقت يشترون لأنفسهم دراجات وينخرطون في الزحام.

ليس لدي وقت طويل لأسرد تاريخ الدراجات في المدينة، فهناك من ينتظرنني.

من الباب الكبير انزلت إلى داخل المستشفى، حديقته أنيقة، بناياته من زمن «بول شاتينيير»، المستشفى مكان المرض والألم والوجع والشفاء، ألوان مختلفة للوزرات حسب وظيفة كل شخص، لكن هناك بعض عاملات النظافة وحراس الأمن يتشبهن بالمرضات في لباسهن وكلامهن؛ حيث يحفظون بعض الجمل الفرنسية ليوهموا الناس البسطاء بأنهن ممرضات، ومن ثم الحصول منهم على رشوة مقابل قضاء أمور وهمية أو حتى مقابل الحصول على معلومات عن ملف مريض من معارفهم، مررت أمام قسم الجراحة ومنه إلى قسم الولادة، رائحة المستشفى كانت دائماً تصيبني بالغثيان ولكنها اليوم لم تفعل، لافتات كثيرة داخل المستشفى تقول «لا للرشوة» «الولادة بالمجان»، «الأدوية متوفرة داخل المستشفى» ولكنها تؤدي دورها المعكوس وكأنها تذكر المرضى بوجوب إعطاء رشوة.

وأنا أقترب من مركز الولادة، أسمع أصواتاً لم أتبينها بداية، ولما اقتربت أكثر ميزت أصواتاً نسائية، صراخ ووعويل مؤلم، نحيب ونشيج مهول، ذوات تتألم وتصرخ لتعطي الحياة، وأول ما يقوله الإنسان وهو يسمع صراخ المخاض هو: الله يسمح لنا من الوالدين.

أصخت سمعي جيداً كي أميز صوت زوجتي لكنني لم أستطع ذلك، فلم أسمعها قبل اليوم تصرخ من شدة الألم.

كنت أتصعب عرقاً، سقطت سترتي عن كتفي، نسيت طرفاً من سروالي داخل جوربي، أدخلته هناك كي لا يتسخ بدواسة الدراجة أو بشحم سلسلة الدفع. حذائي المغبر لا لون له.

عند دخولي من الباب الرئيسي لقسم الولادة تذكرت أنني ولدت هنا في نفس المكان كما تقول أمي، وكانت المولدة هي الأخت الفرنسية، ينادونها ماسور MA SOEUR وهي من الكنيسة الكاثوليكية بتارودانت، هذه الراهبة الفرنسية التي كرست نفسها لخدمة الأمهات بالمستشفى، تقول أمي إنها انبهرت بوزني الكبير ولوني الأشقر، وأنها فهمت من حركاتها أنها ستسرقني لأنني أشقر مثل أولاد بلدها، فخافت أن يتم استبدالني بطفل آخر لذلك لم تسمح لهم بأخذي من حضنها.

ما زالت رائحة المستشفى تداعب أنفي، رائحة الدواء الأحمر المشهور، رائحة مواد التنظيف، روائح الحليب، العطور القوية للممرضات الأنبيقات، هل يمكن أن تعلق هذه الروائح منذ الشهور الأولى لحياة الفرد فلا تبرح ذاكرته أم أنه الحنين الذي يببالغ في الاحتفاظ بكل شيء واستجلابه لحظة التعمق في حوار سري مع الذات، على عتبة قسم الولادة، أنت لا ترغب تمامًا في التذكر خصوصًا إذا كنت في حالة ارتباك كهذه تعيش في ذهنك سيناريوهات كثيرة عن حالة زوجتك الصحية، عن مستوى العناية بداخل المستشفى، عن معاملة الطبيب والمولدات لها.

ألم الولادة يساوي ألم كسر مفتوح مضروب في عشرة، على سلم الألم إذن ترتقي الأم لتكون رفيقتنا ثلاث مرات على سلم الحب.

صراخ حاد يزداد قوة وقوة، ثم يتوقف فجأة ليبدأ بعده صراخ الوليد الذي يشبه صوت آلة موسيقى الحياة، تسكت الوالدة ليصرخ المولود، أحاول أن أنصت لعلي أميز صوت زوجتي دون جدوى، لا أسمعها أبدًا، خرجت إحدى الممرضات من غرفة الولادة فهرولت نحوها أسألها عن زوجتي، لم تبتسم، لم

تضحك، لم تبك، لم تغضب، كأنها كائن بلاستيكي من صنع صيني، أتمنى فقط أن تتكلم، أن يكون نظامها الصوتي بخير وأن تخبرني عن حال زوجتي، أنظر إليها كأني أتوسلها، أتمنى فقط أن تنبس بكلمة، أنتبه أيضًا إلى أنها قد تشير بيدها تعبيرًا عن طمعها في رشوة، آه لو فعلت سأكون عندها في موقف لا أحسد عليه، أنا الذي أقسمت علنا أمام تلامذتي ألا أعطي رشوة في حياتي، حتى أنني ورطتهم في قسم جماعي ورباط أخلاقي ألا يقدموا في حياتهم على تقديم أو تلقي رشوى، كيف سأبدو أمام تلامذتي وأمام نفسي، صحيح لن يراني أحد ولن أخبر أحدًا، ولكن سأكون بذلك قد خنت عهدي وخنت جيلاً كاملاً من الأطفال، ويكون ابني أو ابنتي قد ولد وفي فمه ملعقة من رشوة.

أتمنى أن تتكلم الممرضة وأن تقول فقط ما أريد سماعه منها، أن تخبرني أن زوجتي بخير، أعرف أنها لم تلد بعد وأنها تتألم بشدة، نظرت إلى عيون الممرضة في ضعف متسولاً الأخبار، وما زالت صامته تنظر إليّ كلعبة بلاستيكية، عريضة الكتفين، قوية وطويلة القامة، ترتدي تنورة بيضاء على لباس أزرق موحد على صعيد المستشفى، جميع المولدرات أكتافهن عريضة بسبب طبيعة عملهن اليدوي في دفع الأجنة ومساعدة الأمهات في الحركة بعد الولادة.

أتمنى أن تتكلم، أن تقول شيئاً.

نفضني الارتباك والخوف ولجلجت قائلاً:

- هل زوجتي بخير؟

- ما اسم زوجتك؟

- فاطمة، اسمها فاطمة.

- ليس بعد.

بدأت لي عيناها كالزباني، يتطاير منها شرر الضيق والتأفف مني، ربما مظهري لا يساعد، لحيثي غير المنظمة شوكية الملمس، تناثرت عليها شعيرات الشيب الأبيض، الرمادي، وخليط مما بينهما من درجات، هل كان الأمر سيتغير لو كنت شابًا وسيماً، حليق الوجه، معطرًا، مهندماً بأناقة؟ هل كون حذائي (الذي اشتريته العام الماضي فقط، والذي أصلحته عند الإسكافي بداية هذه السنة) رمادي اللون أيضًا هو السبب؟ وما ذنبي إن كانت الطريق إلى المدرسة مغبرة وتربة، لعنة هي هذا الرمادي.

رائحتي أيضًا تدعو للتقزز، فقد قطعت مسافة لا يستهان بها بواسطة دراجتي، تعرضت خلالها لشمس تارودانت الحارقة المحرقة والعرق يتصبب من كل مناطق جسدي، ينساب عبر عمودي الفقري إلى أسفل الظهر، هناك يستقر فحزامي دائما مشدود بقوة على عظامي ولا يسمح له بالإنسياب ليصل إلى أسفل كما هم أولاد اليوم الذين تظهر مؤخراتهم فوق الحزام، وترتفع ملابسهم الداخلية الملونة إلى أعلى، كان جمال الرجل يرتكز على عرض أكتافه ومنكبيه وساعديه المعرورقين، وصدرة الخشن وأطرافه المليئة القوية واليوم أصبح الشاب يظهر فلقتي مؤخرته من لباس داخلي مزركش بألوان قوس قزح، ربما معايير الحضور تغيرت ولكني لا أقبلها أبدًا، كيف أترك سروالي ينزل وتنزل معه القيم، كيف أسمح لمؤخرتي بالظهور للعلن عبر مايوه أصفر بحزام مكتوب عليه كلمة رجل MEN، أنا رجل ولا أحتاج لشعار على سروالي الداخلي، أصبحت الأنوثة والذكورة تجتمعان في نقطة وسط

بينهما، لعل مطالب المرأة بالمساواة جعلت جنسًا جديدًا من البشر يظهر على سطح الأرض، في منتصف الذكورة ومنتصف الأنوثة، فتجد الشاب يحتفل بمؤخرته ورقته وشعره المصبوغ والملولب والمقصوص بدقة متناهية، وقد يعتمد لأدوات التجميل ويضع على وجهه بعضًا من البودرة لتغطية حب الشباب. فأصبح الرجل في رقة سنبله والمرأة بخروجها للعمل أصبحت في خشونة الرجل، وقد تُغرم امرأة قوية بشاب جميل فتخطبه لنفسها.

كنا نمقت من يترك سرواله مهملاً وساقطاً إلى أسفل الظهر، والآن نمقت من يرفعه إلى أعلى ونصنّفه في ستينيات القرن الماضي وننعتّه بفريد شوقي زمانه؛ لأن فريد شوقي يرفعه حتى يلامس صدره رغم أنه يترك أكياسه الحيوية تلاعب فخذيّه حتى أصبح العالم العربي كله يعرف خصيتي فريد شوقي أكثر مما يعرف جمال عبد الناصر، وحين نرتدي سروالاً نرمي عليه القميص الطويل لمزيد من الاحتياط، هل أصبحت الملابس الداخلية الرجالية بتلك الجمالية التي تجعل من عرضها ضرورة فنية وصيغة حياة؟ ألهذا السبب كانت كل الملابس الداخلية بيضاء قطنية؛ لأنها لم تكن تؤدي إلا وظيفة الحماية؟ أم أن المنافسة الشرسة بين جمال النساء ووسامة الرجال تدعو لاستخدام كل وسائل الإغراء الممكنة؟

ها نحن إذن أمام المساواة بين الجنسين، أتذكر الآن تلك العاهرة التي تشتكي من منافسة الشباب لها في استقطاب الزبائن، وها نحن أمام أوضاع اجتماعية وجنسية غريبة عن الطبيعة قريبة من الفلسفة، ها هي الأنواق تتحور وتسير نحو جعل القواعد الشاذة والنادرة في مركز الاهتمام وفي بؤرة الحضور.

لا يهم ذلك، كل ما يهم هو جواب الممرضة الذي أتاني كبرودة الحمى.

قالت فقط:

- ليس بعد.

هل هذا معناه أنها تريد رشوة؟ لم لا أقدم لها المئة درهم؟ أفسها في يدها خفية عن الحاضرين، عن الآباء المنتظرين مثلي، خفية عن نفسي فأنا لا أريد أن أرى نفسي أفسها رشوة في يد ممرضة أو أي موظف عمومي غيرها.

لا، يستحيل أن أفعل ذلك، كيف سأبدو وأنا أقدم للتلاميذ درس نبذ الرشوة؟ وبأي لسان سأقول لهم: لعن الله الراشي والمرتشي والرائش، سأبدو قزماً وأنا أتقيأ عليهم ما سطر في المقرر الدراسي، يستحيل أن أعطيها درهماً واحداً، لا أحب أن أناقض نفسي أكثر.

بالإضافة إلى ذلك كيف سيكون موقفي مع ابني أو ابنتي وأنا أوصيه وأعلمه الأخلاق وأكره إليه الرشوة؟ كيف سأستقبله في هذا العالم منذ أول يوم؟ كيف أجعل ولدي يتنفس رشوة وهو لم يتنفس هواء بعد؟ قررت إذن ألا أستجيب لنظرات الممرضة وألا أوّّل كلامها على أنه طلب رشوة.

سألتها مرة أخرى في محاولة للحصول على معلومة حول زوجتي فقلت لها:

- ومتى ستلد؟

- ليس بعد يا أستاذ، هي تدفع طفلها وتحاول إخراجه، فقط تحتاج دعاءك لها.

قالت ذلك وقد أبدت صبرًا طويلًا معي.

- يا رب.

كلمتها طمأننتني من جهة، وشوشتني من جهة أخرى، فأنا أزلت عن ذهني فكرة الرشوة المقيتة، ولكنني ارتعبت من وضع زوجتي الصحي، جميع الأمهات يدفعن ليخرجن الجنين للوجود، يخرجنه ليفكر بعد ذلك لم هو موجود.

البيت الذي يعرف ميلاد طفل يعرف تغييرًا لمعنى جميع الأشياء التي يحتويها، قالها الفيلسوف ميرلو بونتي، قرأتها قبل اليوم بسنوات ولكنني لم أعرف معناها أبدًا، ها أنا أندهش كما لم أندهش من قبل، ها أنا بين السماء والأرض أعدو كالفرح، ما أروعني بك، ما أجملني بك، قشعريرة تسري في جسدي وأنا أتغير وأعرف تغييرًا لمعنى جميع الأشياء التي تسكنني، تنذري أحزاني وتذهب مع الريح، وأنسى أنني كنت يومًا أبحث عن معنى وجودي، ها أنا أنظر إليها في لباسها الأبيض المطرز في كل حواشيه بالخياط الوردية الناعمة، بوجنتين مليئتين وشعر أسود فاحم، وعينين ... عينان كبحر.

ها أنا أمسكها بين يدي، ملاك صغير، سيغير معنى كل الأشياء الماضية، دفع الأبوة يغمرنني لا يسعني المستشفى ولا المدينة لأعبر عن فرحي، عن اندهاشي بكائن صغير جدًا في ملحفة بيضاء، يحرك فمه رغبة في قطرات الحليب من المرضعة، هذا الكائن سيغير حياتي، سيمحو كل جراحات الأيام ويزيل ندوب السقطات القديمة والقادمة، ها أنا أستعد للفرح الأبدي.

ملاك...

ملاك رنين موسيقى من جوقة العسل، ملاك سيده نساءي، وملحمة العشق الأزلي، لذلك سميتها ملاك فقد كان حضورها الأبيض ملائكيًا، فلا يمكن أن نختار لها اسمًا آخر لا يرتبط بالنور والجمال والخير.

أقبلت عليّ الممرضة تبتسم، وطلبت مني الرحيل؛ لأن وقت الزيارة انتهى وعليها أن ترضع الملاك.

خرجت من المستشفى لا أدري أين أرحل بقلبي المغمور في بحر الاندهاش، ها هي ابنتي، إنها من لحمي ودمي وقطعة مني، كيد أو كرجل، بل هي كقلب ينبض، مضى اليوم بين السير في طرقات المدينة ومحال بيع لوازم الأطفال، ملأت البيت بالحفاظات والشراشف الوردية، مهد صغير ليهددها ومهد أكبر منه بقليل، فالأطفال يكبرون بسرعة، نظفت البيت الصغير ودفعت سرير غرفة النوم إلى جانب الجدار، كي يترك فراغًا للمهد، للضيف الجديد.

فوق القلب آية فرح، تحت القلب أغنية راقصة، داخل القلب أنت وحكاياتك التي تصدح برنين الابتسامات، لست شهرزاد أبدًا أنت تلال جبال الأطلس، لست هنا لتحكي فقط ولا لتغني فقط، أنت داخل نسيجي الوجودي لتكوني، لأعشقك حد المرح الطفولي..

البيت الذي يعرف ميلاد طفل يشهد تغييرًا في معنى جميع الأشياء التي يحتويها، لا أدري إن رُزق ميرلو بونتي بطفل حين قال ذلك، أم أن تأملاته بلغت درجة من الأبوة، ما الأبوة إلا لحن يعزف من الداخل تجاه كائن ملائكي، حنان وكتلة ضخمة من الحب غير المشروط، ها أنا أعشق كما لم أفعل من قبل، ها أنا أسقط صريع أنثى بعينين عسليتين وشعر أسود فاحم، هل من

العشاق من يستطيع أن ينافسني في دنيا التجلي الحر لحبيبة في صورة رضية، لا أجزم بقدرة بطل على مرّ التاريخ على استكناه جمالي وأنا أنفض عن بيتي المعاني القديمة، وأوثته بمعان جديدة، طلاء وردي لغرفته ولغرفي الداخلية، أي ضوء يسكنني، ما هذه المصايح المزينة برسوم الحيوانات والحشرات، دعسوقة حمراء منقطة بالأصفر لا بالأسود، حواشي المهد أزهار بنفسجية ناتئة ترفرف فوقها نحلة من عالم الرسوم المتحركة.

ستبقى زوجتي في المستشفى ثلاثة أيام، ستكون بخير كما أكد الطبيب، سيكون لي الوقت الكافي لأكتب، لأمارس طقسي الغريب سأحكي قصتي لأنتهي منها، لأبدأ الحياة الجديدة مع المعاني الجديدة التي سيحملها قاموس ابنتي الطفولي، عليّ أن أكتب، أن أنتهي مني لأبدأ من جديد.

البيت الذي يعرف ميلاد طفل يشهد تغييرًا في معنى جميع الأشياء التي يحتويها، سأجعل إذن حكايتي وحكاية جيل كامل بين دفتي دفتر اشتريته اليوم لأبثه الأشياء البسيطة والمعقدة التي مررت منها أو التي مرت بي، لم تعد القصائد القديمة تسعني، بل لم أعد أهتدي بالشعر عن ضالتي الوجودية، الحكاية وحدها قادرة على احتضاني واحتضان ما تخزنه ذاكرتي وعيني وصمتي، فلأقل إذن كل ما لم أستطع قوله في سطور المجاز الشعري.

أنا الذي قلت يومًا أجمل ما في الحياة قلب طفل و صدر امرأة، ولم أكن أتصور أن يكون قلب الطفل بحجم عالم. تمامًا، أجمل ما في الحياة قلب طفل و صدر امرأة، الأول يذكرك بنقاء الوجود الإنساني يقول لك ها أنت قبل أن تلوثك الحياة وتصبح حفرة شهوات. والثاني يمنحك مجال الهروب من تعب العيش، من ينكر أن صدر المرأة كان ملاذنا وفيه دفء النمو وحليب

نخاع عظامنا؟! من ينكر أن القلق والموت والتعب والهوان والضعف والمرض يخف في حضرة أنثى؟!!

المرأة التي لا ندرك حجم حضورها، لا ننتبه كثيرًا للتفاصيل التي تصنع بها حياتنا دون كلام، غالبًا تهدر النساء الكثير من الوقت على التفاصيل الصغيرة التي لا ينتبه لها الرجال، فالموضة عندهن تقف عند خطوط معينة وتطريزات متغيرة مع كل فصل، أحذية بمقاسات مختلفة، والمطبخ لا يعتمد على اللحم والخضر والفواكه، بل على تشكيلة متنوعة من البهارات والمنكهات، كثيرة جدًا تلك التفاصيل التي تفعلها النساء من أجل العالم. لا يكفي أن تشتري مائدة خشبية ثقيلة، فستحتاج حتمًا لتلك المناديل المطرزة على طريقة «الحساب» المعتمد على المربعات والخطوط الدقيقة، وأشياء أخرى بسيطة لن نستطيع الإمساك بها مهما انتبهنا، دون وداع، دون عتاب دون ابتسامات. أيتها الصباح الجميل قل لزوجتي وهي في المستشفى: صباح الشفاء، صباح الخير.

قل لها: صباحك ريحان، تعجبت دومًا كيف تستقيم مساند الصالون هكذا منتظمة، فإذا بي أشم رائحة راحتك عليها، ولمستك الضرورية لكل ديكورات البيت، الكعك والعصائر، والأسرار الأخرى لمطبخك الأمازيغي، خيوط الزعفران وتشكيلة التوابل الطبيعية، كل شيء قابل لأن يتحول بين أصابعك لحلوى عيد ميلاد تفضلين صنعها منزليًا وحتى روايات عبير وأرلوكان التافهة أصبحت تعجبني؛ لأنك تحملينها بين يديك كل فراغ، والمسلسلات التركية الماراطونية وأبطالها البكائين، أصبحت أستسيغها وأقبلها دون عسر هضم.

إصرارك على قراءة سورة ياسين كل جمعة جماعة وإصرارك على استقبال أصدقائي بالبيت بدل المقهى، كل هذا وأشياء أخرى صغيرة تجعلك أميرتي.

ها أنا وحدي بالبيت، أتأمل الحياة، حياتي فقط، عمري ستٌ وثلاثون سنة، وطفلة صغيرة، فتحت دولابًا في غرفة صغيرة خصصتها لتكون مكتبًا لي، أصحح فيه الدفاتر وأعد فيه جذاذات الدروس، فتحت بصعوبة لأنني لم أصلحه بعد شرائه من سوق المهملات، أو لنقل الأشياء المستعملة، أخذت منه مخطوطًا قديمًا لمحاولة لي في الرواية، كتبت قبل زواجي في محاولة للملمة شتات أفكارى والبحث عن منفذ جديد للحياة بعد أن فشلت في إقناع نفسي بجدواها، كتبت كما يكتب الرواة، ولكني اليوم أقرأها كما يقرأ المثخنون بالحنين، كل سطر ينزف حروفًا من زمن مدجج بالحرمان، مخطوط رواية ضمننتها سبل الحياة كي ألخص فيها جدوى الحضور في عالم لا يستحق إلا لعنة الغياب.

لا أستطيع أن أكتب شيئًا، كنت قد خططت محاولة قديمة في الرواية، فلأعد إليها الآن، أخذت دفترًا أرجوانيًا على غلافه رسوم تخطيطية لأسوار عتيقة، ونخلة وصومعة بعيدة. وكان طقسًا جنونيًا أن أقرأ لنفسي كأنني لم أكتب يومًا، أن أدعي أنني لست حاملٍ جملٍ قديمة ومحملها بالمعنى، في قداسة محراب الوحدة أشم دفتري وأقرأ بصوت عميق لا يسمع.

وأقرأ

عاد أيور من الثانوية التي بدأت تعرف اضطرابات كثيرة بين الإدارة والتلاميذ، مظاهرات في كل صبيحة، وبقي في الغرفة طوال المساء، إلى أن عاد أسامة من الجامعة. لم يكن غيرهما بالبيت، فياسين ذهب للقريبة لحضور عزاء عمه وأيمن سيقضي الليلة عند أصدقائه. خرج لتناول العشاء في مطعم شعبي للشطائر، اعترضه منظر شابة تغمزه من وراء باب بيتها في درب الأندلس، مر كأنه لم يلمحها، زبيدة لم تكن شابة بل زوجة مهاجر مغربي، وكثيرًا ما ترميه بغمزاتها كلما مر أمام الباب كانت تثيره وتعلق بخياله كلما فعلت ذلك، يحتفظ بصوتها وحركاتها في ذاكرته ولكنه لا يجرؤ على أكثر من ذلك.

حين دخل سمع صوت أسامة بالغرفة، فهو لم يغادرها أصلًا، فجلس إلى جواره بعد أن لاحظ أنه دخل في حالة انتشاء بالشيشة التي يغرغر ماؤها أمامه.

- «أنت لا يمكنك أن تفهم ما يحدث لأنك لا تعيشه، لا تستشعره، ولا تريد أن تعيشه ولا أن تشعر به، أنت لا تحب ما أشعر به، وتكره أن أشعر به، وما يمنعك من كرهني هو ما بيننا من تاريخ وجغرافيا، ولأني لا أستحق أن تكرهني، ولأن حرיתי لا تمس حررتك، فقد تلتصق بك رائحتي وأنا أسلم عليك، وأنا أعانقك، لكنك لن تتحمل وزري، أنا أتحمّل كل مسؤولياتي.

حين أتيت للعيش معنا، أنت وياسين، كنا ننظر إليك بتوجس كبير، صمتك وسرحانك شكّل لي حاجزًا إسمنتيًا منيعًا من التواصل معك، وحتى من الابتسام في وجهك، ولكني لم أكرهك يومًا، أنا منشغل بنفسي، وبملاسي وبجسدي وبعلاقاتي، أنا لا أرغم أحدًا على شيء، كلُّ يفعل ما يريد، كلُّ يتصرف كما يمليه عليه عقله وقلبه، وقد يتصرف دون أن يملني عليه لا عقله ولا قلبه، يتصرف هكذا فقط، دون تفكير في تصرفاته، هكذا أنا في أغلب الأحيان.

أنا لا أفعل شيئًا سيئًا، لا أؤذي أحدًا، والأهم أنني لا أبيع نفسي كما تعتقد أنت، أو يمكن أن تعتقد، لا أحد يلمسني، رأسمالي هو كلامي.

ولا أحد يملك الحق في مصادرة كلامي، تعتقد أن الفقر عقدتي؟ الأمر ليس كذلك، الفقر ليس عقدتي.

أنا أجد متعتي في ذلك،

هم يحبون مرافقتي، يجدون في وسامتي وفي شبابي وسامتهم وشبابهم المفقود، ولكن لا يهمني ذلك أبدًا، ما يهمني هو أن أكون كما أريد، أن أعيش»

كان أيور ينصت ولكنه لم يفهم شيئًا، أو أنه لا يستطيع أن يصدق ما يسمع، أحيانًا يرفض العقل تصديق الأشياء الواقعية، ويحاول تجنبها عبر اللافهم، اللافهم والضبابية تمنع عنا الصدمات والكوارث العاطفية.

يحرك أيور رأسه بالإيجاب وكأنه موافق، في دواخله اشتعلت نيران الرغبة العميقة في فهم حياة أسامة، لم يقل ذلك؟ لم يهتم بمظهره بإسراف؟ لم

يشتري ملابس كثيرة على الموضة وينسقها على حاسوبه قبل ارتدائها كأنه ممثل هوليوودي؟ في أي عالم يعيش أسامة وما سر رفاهيته؟ ولم يصر على أنه لا يبيع نفسه؟

أيور يعتقد دومًا أن صديقه يعاني خطبًا ما، وأن حبه للحديث إليه نابع من ثقته بأن أيور بعيد جدًا عما يدور في خلد أسامة، وهذا ما يحدث غالبًا مع بعض الأشخاص، فالإنسان يفضل فضح أسراره أمام الغرباء؛ لأنهم عابرون ولن يعودوا ليذكروك بها، ولن يفضحوك أمام الناس، والأهم لن يفضحوك أمام نفسك، كذلك كانت علاقة أسامة بأيور.

يملاً أسامة الشيشة، وينفث الدخان في الهواء، ويعتذر كل مرة من أيور احترامًا له ويحكي...

يتحدث دون روابط منطقية، يقول كل شيء بلا وعي، بلا فرامل، ولكنه غامض كدخانه، صوت النارجيلة وهو ينفخ فيها كصوت أعماقه، غرغرة روح وهذيان جسد.

أيور كعادته يحسن فن الإنصات، يستمع فقط، وقد يفعل ولكنه يفعل إلى داخله، وهذا يبدو من حركات عينيه، رموشه تتحرك بثقل وكأنه يرفع ستارة ضخمة، عيناه واسعتان ولذلك يبدو كالنعسان وهو مستيقظ، وهذا ما يمنح الآخرين ثقة منذ اللقاء الأول به.

«أنا لا أبيع نفسي، أنا أشتري نفسي، هم يملكون المال والنفوذ وأنا أملك الشباب والحيوية والابتسامة، ولا عيب في تبادل الأدوار والسلطات، لا عيب في ذلك.

أهم شيء أن لا أحد يلمسني، أو يضع يده عليّ».

لاحظ أيور أن أسامة يتحدث عن نفسه كموضوع شرف، وهذا ما زاده ارتباكًا ولكنه ظل صامتًا يرقب سرد وشرود أسامة، وربما ظن أن السبب هو تأثير الشيشة ومفعولها القوي، وأسامة لا يقول كل شيء.

في أي منطقة من اللاوعي استطاع أن يخبئ أفكاره؟

هناك أشياء لا يبوح بها اللاوعي نفسه، مهما غرق الجسد في الخمر والمخدرات والانطلاق، حتى لو بلغ أعلى درجات السكر، حتى لو انهار الجسد جثة هامدة، حتى لو نومته مغناطيسيًا، لن يعترف. هناك أجساد تنكمش على السر وتدفنه بالمعنى الحقيقي في بئر عميقة داخلها، أن تحتفظ بسر يعني أن تنساه داخلك وأن تعيش كأنك لا تعرف أنه سر.

لم يكن هدف أيور هو التحقيق بل التحدث مع أسامة وإمضاء السهرة معه، استغل فرصة غياب الجميع، وجلس مقابل هذيان أسامة، وكان ينظر إليه كأنه يشاهد فيلمًا سينمائيًا بالدخان والكلام، بالرمادي والذكريات، فيلمًا عميقًا بصور الحيرة والضعف والقوة أحيانًا، لماذا يحمل أسامة في قلبه كل هذا الحنين؟ كل هذا الألم؟ أليس هو الشاب الأوسم بيننا وفي الكلية كلها؟ أبيض البشرة، لحيته محددة بدقة كأنها مرسومة بقلم الرصاص، عيناه بنيتان فاتحتان، ملامحه كلها طفولية كأنه طفل في السابعة من عمره، معتدل القامة ولكنه يميل إلى الطول.

شعر أسامة بالاختناق ربما لأنه تجاوز ما اعتاده من جولات الشيشة، اختناقه واضح؛ لأنه خلع ملابسه وبقي في سرواله المنزلي القصير، يتناثر على جسده

شعر مرتب وقصير يغطي بطنه و صدره، إنه موديل أزياء منسي في مدينة الأسوار.

خاف أيور من حركات أسامة واختناقه، ولكنه طلب منه أن يهدأ لأنه يشعر بالحرارة فقط بسبب الشيشة وبسبب أشياء أخرى تحترق داخله، الشيشة غرغرة الفوضى في غيابات الروح، حشاشة حياة تائهة في دروب بيت النمل الأحمر.

أيور يعطف على الجميع، يشعر بالمسئولية تجاه الكل، فما بالنابشخص يكتري معه نفس المنزل، لاحظ أن أسامة لم يكتف بالشيشة اليوم بل تناول شيئًا قبلها، ربما شرب البيرة، على غير عادته في الملهى قبل دخوله للبيت، البيرة أيضًا ماء غياب يروي الجروح التائهة في بيت النحل، بيت غابت عنه الملكة.

«انظر إليّ أيور، أنا أحب نفسي هكذا، بل أكره نفسي، لكنني مقتنع بما أفعله، الحصول على المال صعب في هذه الحياة الجحيمية، ومصاريف دراستي تضغط عليّ، أنت لا تدرك هذا لأنك ما زلت في الباكالوريا، لكن أنا أدرس بالجامعة وفوق ذلك أدفع للمدارس الخاصة مقابل ساعات الدعم في اللغات والتواصل، لأنقذ نفسي من جهلي القديم باللغات، ورثته منذ الابتدائي، الآن أنا أعرف قيمة الدراسة، وأحتاج مالاَ لأمول دراستي، جميع الطلبة في الغرب يشتغلون ليمولوا دراساتهم العليا، هناك من يشتغلون بنصف الدوام أو ربهه في المطاعم والحانات، ودور الأزياء والوكالات السياحية.

أنا أفعل نفس الشيء، لي وكالتي الخاصة، ولي زبائني وأحياناً زبوناتي،  
أستطيع أن أشتري من زارا وسيليو وجيوفاني».

دائمًا يبدو الإنسان سعيدًا حين يتحدث لا وعيه.

ما وراء الوعي يخفي أشياء كثيرة جدًا، إنها عادية وتحدث دائمًا، نادرًا، لكنها تحدث، لا يمكننا معها أحيانًا - بسبب ضعفنا الإنساني، بسبب الألم، بسبب اللارغبة، بسبب الرغبة العميقة في النسيان- أن نخفيها كما يجب، لكنها تؤثر فينا دائمًا وتجعلنا نتصرف كذلك بسببها وتتحكم في كل تصوراتنا وتوتراتنا، عصبيتنا وسعادتنا، إنها تتغلغل فينا، نقتلها أحيانًا وتقتلنا أحيانًا أخرى.

المهن الطلابية التي تحدّث عنها أسامة لا تنتمي لمجال أيور، فحين يحتاج مألًا يعمل حمالًا في السوق القديمة أو مساعد بائع خضر، أو حارسًا ليليًا في عمارة طول فصل الصيف، ويشتغل مساعد كتبي في بداية السنة الدراسية حين يكون الضغط شديدًا على المكتبات.

لكن مهن أسامة تنتمي لعالم آخر فيه من الثراء ما فيه، عالم مرتبط بالمجلات والصور والأزياء والحفلات والأناقة والجمال، عالم فيه من المال بقدر ما فيه من الخبث.

أيور ينصت، هو دائمًا ينصت، ولا أحد يعلم ما يجول بخلده، لا يزعج أحدًا بكلامه ولا بصمته، أفراحه مخبأة داخله، أما أحزانه فبحر لا يعلم عنه أحد شيئًا، ربما لا يؤرقه شيء في هذه الحياة، وربما هو مستسلم بإيجابية تجعله يعيش في سلام وطمأنينة، وقد يكون أكثر ثرثرة مع صديقه ياسين فقط، هو وياسين وجهان لعملة واحدة، كما يحسبهما رفاق البيت.

استمر أسامة في هذيانه في عبثه بروحه، بالاتحاد مع دخان الغرفة التي تحولت إلى مدخنة فوهتها هي أسامة، شعر أيور بالاختناق، فتح الباب، وترك الهواء يدخل لينقشع بعض الدخان.

لا يحب التدخين ولا شرب البيرة ولا أي طقس دخاني آخر، وحين يتعلق الأمر بصديق يعرفه، يصبر على الوضع، فهو لا يتخلى عن جلسات البوح، فضولاً ربما، ولكنه شخص محب، يعطي الآخر قيمة كبيرة، يقدر الألم، يقدر الألم.

الساعة تجاوزت الثالثة، نام أسامة مكانه مرتميًا كجثة هامدة، أما أيور فانتقل لغرفته، أعد فراشه للنوم، لكنه ظل لنصف ساعة يفكر، يتذكر، أو ربما يحملق فقط في مصباح الغرفة، أطفأه ونام على جنبه الأيمن متممًا بآية الكرسي وأدعية ما قبل النوم.

اعتاد الأربعة على هذه السهرات الشبابية، بين السجائر والشيشة والذكريات وأطياف النساء، لكن حزن أسامة الليلة وغياب ياسين والآخر جعل للسهرة مذاق البوح الشفاف، وفكر أيور أن داخل كل رجل بذرة عذاب مهما بدا مرحًا ومتعجرفًا، بداخل كل إنسان ضوء من الأرق يزعجه، لمسة قديمة من القلق ترافقه، كذكرى متخفية بين ثنايا لا وعيه.

يكون الاستيقاظ صباحًا بعد ليلة دخان ثقيلًا، صباح الأحد كسول، كسول لأنه وحيد داخل غرفة رطبة بالطابق السفلي، يقطنها الطلبة المنحدرون من نواحي تارودانت، غرف صغيرة مربعة تحتضن فراشين فقط، حصيرة ملونة في كل زاوية منها، يضع الطلبة فراشًا، قربه كتب وملابس ومحفظة، وربما شمعة تحسبًا لانقطاع الكهرباء المفاجئ.

حياة الطلبة بسيطة ولكن دواخلهم معقدة، علاقاتهم مع الحياة معقدة، القرآن الكريم وسيرة ابن هشام، ستالين وتروتسكي ومدام بوفاري، الطيب صالح والعرابي، أحلام مستغانمي وزهرة المنصوري، والدعاء المستجاب.

أيور يحتل جانبًا وياسين يحتل الجانب المقابل، بينهما على الجدار بوستير عازف القيثارة رفقة صديقه، التي تدخن في ليلة مقمرة، المساحة الصغيرة قرب الباب يضعان فيها دولابًا من الخشب من ثلاثة أرفف، على الرف العلوي تلفاز صغير للاتصال بعالم الآخرين، هناك في الرباط العاصمة.

وراء الباب مشاجب كثيرة لتعليق الأقمصة والسراويل، كل ما يملكه أيور وياسين معلق هناك.

أما غرفة أسامة فهي مؤثثة بسرير خشبي قديم، وطاولة بلاستيكية بيضاء، عليها حاسوبه والكثير من المجلات والكتب والأوراق، كتب كلها مرتبطة بالمقرر الدراسي، أما المجلات فكلها عن الأزياء والرياضة، وجدران الغرفة

مغطاة ببوسترات شاكيراً ومريام فارس وتامر حسني، ملابسه مكوية بعناية ومعلقة وراء الباب أو مرتبة داخل دولا ب خشبي صغير اشتراه من السوق حيث تباع الأشياء المستعملة، وربما تركه المكتري القديم أو الذي قبله فكثيراً ما يرث الطلبة حاجيات الذين مروا قبلهم من هذا البيت، الآخرون الذين عاشوا فيه مرحلة دراستهم الثانوية أو الجامعية، والذين استقبلتهم أرصفة البطالة.

والغرفة الثالثة يحتلها طالب جامعي آخر صديق مقرب لأسامة، لكنه غائب طوال الوقت بحكم ارتباطه بعلاقات صداقة مع طلبة آخرين يقطنون في حي شعبي آخر، ما يجمع بين الغرف الثلاثة هو الرطوبة. فقبل الدخول من الباب تمر عبر ممر مظلم، تحت صابة\* تربط ساحة الأندلس بالرحبة القديمة وبمسجد سيدي وسيدي، المنزل يقع تمامًا بين المسجد والضريح ذي الأقفال المغلقة، في باريس جسر للأقفال التي يتعاهد حولها العشاق، وفي تارودانت ضريح معلق فيه الأقفال لجلب الحب أيضاً بطريقة أخرى، صاحب البيت يسكن بالطابق العلوي ويتمتع بالشمس والحرارة، يؤجر الطابق السفلي لطلبة من الفئات الفقيرة بثمن مناسب، فلا أحد يستطيع أن يصبر على رطوبة المكان غير طلبة يملأون الغرف دخاناً كل ليلة، البيت هنا

---

\* ممر مظلم غالباً ما يكون مدخلاً للحارة القديمة.

مكان للنوم فقط، لا للعيش، الطلبة يعيشون خارج البيت، في الجامعة والحدائق العمومية وأحياناً في ضيافة مخافر الشرطة بعد الاضرابات

والمظاهرات.

الصف الثالث الثانوي لا يختلف عن الجامعة هكذا يشعر أيور وياسين؛ لأنهما يأخذان الدراسة مأخذ الحياة، ويعلمان جيدًا أنها سبيل نجاتهما من مآزق الحياة في الدوار الجبلي؛ لذلك يجتهدان أضعاف ما يفعله الآخرون.

علاقة أيور بالكتب خاصة جدًا.

لذلك كانت له حياتان، وكان يعرف معنى الإنصات ومعنى الصمت، فالقراءة وحدها تعلمك أن تستمع وأنت ساكت؛ لأنك لو تحدثت لن يجيبك الكاتب، فتكون مجبرًا على محاورة السطور في صمت، طقس القراءة عبادة في محراب الصمت، القراءة مرادف للهدوء رغم ما تحدثه من حروب القلق في الداخل، وكان ارتباطه بصديقه أيور يكفيه شر الصداقات الكثيرة والمتعبة.

استيقظ أيور أولًا،

اتجه إلى المغسل، صبَّ الماء على شعره، ووضع الماء في الغلاية على النار من أجل صنع الشاي، أسامة لم يستيقظ بعد وحتى لو استيقظ لن يخرج من غرفته قبل الثالثة بعد الزوال، ليستحمَّ ويرتدي ملابسه استعدادًا للخروج في السادسة مساءً.

أيور سيتناول فطوره، شاي وزيت زيتون وحبات زيتون، ليخرج إلى الحديقة العمومية إبراهيم الروداني؛ حيث الشمس ليعد واجباته المدرسية، وسيمر على المقهى ليتناول العدس أو الفاصوليا عند الحاج أحمد، ويقضي بقية اليوم في القراءة.

ليبقى البيت فارغًا إلا من الذكريات، كل غرفة تحكي حياة، الطلبة يخطون حياتهم على الجدران كالسجناء، توقيعات ورسوم وأشعار، على الجدار، فوق كل وسادة تجد تاريخًا مكتوبًا بالقلم الحبري الجاف، وتجد تخطيطات تبدو للوهلة الأولى دون معنى، لكنك لو دقت فيها لرأيت تاريخًا لشعب من الطلبة، لهم إيقاعات حياة مختلفة، رموز ومرجعيات خاصة بكل طالب.

ما أكثر القلوب بين هذه الرسوم، القلوب المجروحة التي تنزف بغزارة، ليس بسبب الحب وحده، ولكن بسبب التخلي واليتم والقهر والتهيه والضياع.

التهيه، يا لها من كلمة، إنها تائهة أيضًا، ويصعب النطق بها، فالوقوف على الياء والهاء يتعب الحلق.

كذلك هذه المعلقة الطلابية على الجدران، قلوب صغيرة ومعدبة أكثر مما هي سعيدة، ربما لأن الإنسان لا يفكر في التعبير إلا حين يكون حزينًا، أما حين يشعر بالسعادة فيفضل أن يعيشها حقيقة دون وسيط تمثيلي.

أبيات خليل حاوي الثائرة مكتوبة بخط واضح، ليس خط أيور ولا خط ياسين،

«وتغنين العذارى

وصبابات العذارى

أنت يا موطوءة النهدين

يا نعش السكارى»

«نحن في بيروت مأساة ولدنا

بوجوه وعقول مستعارة

تولد الفكرة في السوق بغياً

ثمّ تقضي العمر في لفق البكارة».

بورتريه لتشي جيفارا، محمود درويش وعلم فلسطين، حنظلة ناجي العلي  
محرف قليلاً، وكل رموز الثورة والمقاومة في هذا العالم، حتى شعار النازية  
حاضر بلون أحمر باهت، المطرقة والسندان، الشهادتان، لا إله إلا الله محمد  
رسول الله، رطوبة البيت لم تستطع أن تمحو هذه العلامات، كما لم يستطع  
القمع قبلها، يكفي أن ترى نظارات درويش كي تتعلق بكل جدارياته، وحنظلة  
يدير ظهره للعرب ويغطي مؤخرته بيديه، يعيش الطلبة كل أسباب الثورة  
ولكن البطالة تقلّم رغبتهم في الفعل.

انسحبت الشمس عن تارودانت وحل مساء عادي، حركة سريعة قبل أذان المغرب، الرحبة القديمة تضحج بالباعة والمشتريين، صاحبة الحريرة\* أفرغت برمتها وجمعت مطعمها المتنقل في سلة من الخشب وهي تحمد الله على كل شيء، شرب من حريرتها كل أصحاب المحلات المجاورة الذين اعتادوا أن تقدم لهم زهرة طبقًا متوسطًا من الحريرة مع تمر وبيضة واحدة مسلوقة، بثمان مناسب، جميع الطلبة يمرون من هنا وقت المغرب لتناول الحريرة، وقد يعتبرونها عشاء وينصرفون للنوم.

الطلبة عادة يفضلون تناول السجائر على تناول الطعام، فالجريدة وفكرة ماركسية صغيرة عن البروليتاريا وجزء من المائة عن مفهوم الحرية، أشياء لا تستقيم دون سيجارة.

كل الأصوات تخفت مع تقدم الليل، وتحل محلها أصوات جديدة للمتعبين من حياة الضوء، للمداومين على سواد الليل، لمهن جديدة ولحوارات جديدة، للصراخ والحركة والهروب والهذيان والسب والشتيم، للسكارى والمعربدين، والحشاشين والمتشردين.

---

\*حساء مغربي.

أيور دخل فراشه وحمل كتابًا، يرفع الغطاء إلى صدره ويمسك الكتاب بين يديه، قريبًا من عينيه، ياسين تأخر كثيرًا على غير عادته، ولكن أيور يداري قلقه عليه ويدفنه داخل المطالعة، سيدخل ياسين قريبًا ونكون أمام أمرين، إما أن يبادر أيور بالسؤال: لم تأخرت؟ وهنا سيشعر ياسين باهتمامه به ويجيبه، أو سيصمت أيور ويغضب ياسين لأنه لم يهتم لتأخره، صنعًا جوًّا أسريًّا يهربان إليه من عبث الحياة الطلابية، ففي الحياة العادية حيث البيت والدفع والأب والأم يجب أن يقلق أحد حتى تسير الأمور بشكل عادي.

وإن صمت أيور فلأنه غاضب، أيور لا يفعل ولا يتحدث كثيرًا عن مشاعره، هو صامت كتمثال، علاقات تليّن الغربة وتجعلها مرحلة من مراحل الحياة، ولكن في حالات كثيرة يصبح البعد عن الأصدقاء حتى وأنت داخل الأسرة غربة حقيقية لا قرار لها، الغربة هي أن تشعر بأنك وحيد مهما كنت بين الناس، بل وأن هناك من يكون قربك ويمنحك إحساسًا بالغربة، والمدينة تفعل ذلك أحيانًا خصوصًا إن كنت بدون رفقة؛ حيث جيوش البشر كموجات البحر حولك جيئةً وذهابًا وأنت تسير وحدك في دهليز كروح تنهياً للسفر.

سأله ياسين:

- ألم تكتب شعراً اليوم؟

- لا لدي امتحان في العلوم الطبيعية غدًا، بقيت طوال اليوم في الحديقة أراجع، والآن أقرأ مدن الملح.

- منذ فترة لم تقرأ لنا شعرك، أشتاق جملك وصورك.

- فقط حين أتخلص من ضغط الامتحان أقرأ لك القديم والجديد.

- ماذا تناولت على العشاء؟

- شربت حريرة من زهرة.

- أأست جائعًا؟ خذ هذه الشطيرة لك، إنه من محل عبد الرحمن مول الحوت.

- الله يعطيك الخير أخي.

- هيا أيور إقرأ لي تلك القصيدة التي أحبها، أحب أن أسمعها بصوتك، تبدو أجمل وهي تتلون برنة بحتك، وأنا سأعد فنجان زعتر مُحلَّى بالسكر، لأنني أشعر بالبرد، من أجل خاطري أزل عنك التعب، أنا مصرٌّ على طلبتي، لا تكن بخيلاً.

وراح أيور يقرأ:

لو خيرتموني

سأرغب أن أكون ماء

لأغسل وجه الحزاني

وأروي عيون الثكالي

كي يبكين

بدمع أوفر لا يجرح العين

سأصادق المطر

ليسقي أراض الفقراء

ويبتعد عن منازل الفقراء

سأغسل الموتى

وأرشح من عيون الجميلات

كالحنين

يتصبب من عرق الغرباء

سأكون ماء

لو خيرتموني

لرغبت أن أكون ضوءاً

فأنا عنيد كالضوء

أتسلل عبر المسام لأحيا

كقطار في المسار

أسير

وأمتد أمتد عبر الثقوب والجدران

واتجلى عبر المصابيح الزرق

واتدلى عبر الفنار

وأضرب العبث بالسيف

كسحب اليقين

وأشعل الشهوة في الظلام

لينطلق الفانوس

كطائرة تستدل بمصابيح المطار

وأسبق السيارات

وأضرب بخيلي

كي أفضح مراهقين يمارسان

لعبة التقبيل

وراء الجدار

لو خيرتموني

سأرغب في أن أكون ترابًا

كي أحضن الغائبين

والمختبئين قرب الموت

سأدفئهم بحنان

كي لا تصيبهم الوحدة بنزلة برد

وأحارب الديدان

وأنبث الأقبان على القبور

وأقرأ آثار أقدام الزائرين

وأستمع لسورة يس

والقرآن الكريم.

يتطلع ياسين إلى وجه صديقه ليرى كيف ينطق الحروف، خصوصًا حرف النون الذي تكرر كثيرًا، إن الشعر يجعل ياسين مشدوهُا إلى صديقه، يقترب منه ويركز حد التماهي مع ذبذبات الحروف، ويبقى مسمرًا في مكانه يفكر مدة بعد انتهاء القصيدة، كأنه يشرب من أثرها على كيانه، وعي أيور باللغة مبكر وحساسيته للصور خاصة جدًّا، لكنها تزداد تعقيدًا يومًا بعد يوم، وتزداد الهوة بين الكلمات وتتلوى الاستعارات، تلك العلاقات القديمة بين السكوت والصمت تنتهي، ليصبح الصمت تاريخًا، ضجيجًا يقضي مضجع النجوم، النجوم التي تفضل أن تقبع في العلياء، لعلها تراقب الحيارى في هذا العالم وتضيء حنينهم، لم يفعل الشعر في النفوس فعل السحر، ولم يعتقد العالم أن زمن الشعر قد ولى؟ ما زال الإنسان إنسانًا ما بقي يستعذب الشعر والكلمة،

وأيور يمسك العالم من طرف خفي، من فجر قصيدة أو أهداب سنبله، فهو ينظر إلى الألوان على ظهر دعسوقة ويبنى خليجًا من الرمل والحيرة.

أخذ أيور نفسًا قويًا، اتجه صوب نفسه، في مواجهة مع أفكاره، ربما تحرقه أفكاره، هذا ما يحدث، عليه أن يكون ماء، عليه أن يستعيد ديبلوماسية البحور والمحيطات والأنهار والخرائط، إنه يحمل نارًا في لفته، ويخاف أن يحترق العالم بسبب شمعة منسية في ركن البيت.

كيف سيكون ماء وقد حدث صديقه ذات يوم عن علاقته المتوترة مع النافورة قرب الأسوار، يقول إنها تسبب له الحنين، والحنين موجه، ماؤها يثيره كأبي جنوبي، ولكن صوته يوحي له بلوحة سوداء الملامح، عليه أن يعيد ترتيب الفسيفساء، وألا يسقط قطعة الحب الزرقاء مهما تعقدت علاقته مع الماء، للنافورة نسب مع البحر، وعداوة الجبلي مع البحر واضحة منذ أول تجربة غرق.

كيف سيكون ضوءًا، سيحتاج نجوم المجرة لتضيء دواخله، فالكون كتلة ظلام، وشعره كتلة ظلام تنخر جسد الدوالي، شكّل سيقان دالة العنب تحت النجوم صورة تشعر أيور بالفقد، إنه مثله تمامًا، حزين وحزنه التوائي، أليم كفيض من الرجاء يغلي، يمتد عبر الكلمات والصور، أحيانًا يشعر ياسين بالندم؛ لأنه طلب منه أن يقرأ شعرًا، وغالبًا ما يتمنى أن ينطلق الكلام الذابل في حلق أيور وألا يداري قلقه البنفسجي الموجه.

كثير من الديدان تخرج من قصائد أيور، أغلبها حزينة ولها تاريخ في الحزن والصمت، لونها البني الترابي دليل ذلك.

انقلاب في الخطاب، نحن ننتج خطابات تنقلب ضدنا كأفاعي الصحراء تعض مروضها وفاءً لعطشها الأزلي، ماذا لو استهلكنا كميات قليلة من مفردات الحزن ونستغني عن المجازات الضخمة التي تضاعف حزننا، ماذا لو عبرنا بجمل قصيرة تختزل تعاستنا ونختار لها أقصر السبل في إعرابها دون مفاعيل إضافية، ودون تقديم أو تأخير، هل سنقزم حزننا بذلك أم سنجعله يخدعنا بتناهيه في الصغر، وهو كبير كصفصافة معمرة تنثر أوراقها كلما شعرت بالسأم، كتلك الصفصافة المسمومة التي نمت قرب معمل مبيدات الحشرات وراء ثانوية سيدي وسيدي، ظلت لعقود تنفث سمها عبر أوراقها الخضراء، فما أن تقترب منها حتى تختنق، جذعها بني به حمرة كحمرة النحاس، إنها لا تبدو من فصيلة النباتات بل قطعة من حديد تركه المستعمر.

إن قَرَمنا حزننا سنكون بذلك نعامل النسر بمخالبه القاسية معاملة الدوري الصغير الذي يطل من ضواية المنزل أو من نافذة صغيرة، حقًا بعض المفردات تبدو فضفاضة لمعالجة حزن عابر كريشة في الهواء، وبعضها يبدو دبابة لتحطيم حزن بحجم دبابة، أي تعاسة تحيط باللغة وهي تبتلع حزنًا قديمًا بأساليب تركيب بسيطة، يقول ياسين في نفسه، وأي غياب للغة وهي تشخص زكام الحزن على أنه سرطان حياة.

نحتاج تلك اللغة المحايدة التي تحتوي مكعبات بمختلف الأحجام لكل مكعب جملة خاصة تحضن حزنًا بقياس معين، ستكون لنا إذن- يقول ياسين في نفسه- تلك اللغة المحنطة التي مات دفؤها، وسرت فيها قشعريرة المساطر، بزوايا حادة وجارحة بعدما عبثت بها يد مهندس الأحزان، اللغة السكين القاتلة التي حين تفيض أسى تعجز عن احتوائك بالمفردات فتضطر حينها

للتعبير الميمي فتقطر دمغًا، يتحجر البؤس في عمقك الكئيب فلا تقوى على الكلام.

الشعر إذن استرداد لبعض ما ضاع فينا من كلام، بعض القول المختبئ في المقل، وتلك الشرارة الصغيرة التي يحتفظ بها الشعراء رغبة في إشعال بركان يغير العالم، كلهم مثل أيور يكتبون من أجل غدٍ سيكون في نظرهم أجمل؛ لذلك تأتي القصائد هكذا صمامات أمان ضد توحش المدينة وضد تصلب الأمل في دواخلنا.

ياسين يشتاق أن يسمع شعرًا، ومن يشتاق أن يسمع شعرًا غير رجل يسكنه سرب من السنونوات والحمام ويحب أن يطعمها ملحًا من رنين الكلمات، وغبارًا من الفستق وشرارة من الذكريات ووميضًا من ضوء الفرح.

الزعتري الجبلي الساخن في إبريق قديم من الألومنيوم، وكأسان زجاجيان شفافان كقلب ياسين بحاشية ذهبية، يضع الصينية البلاستيكية على الأرض بين الفراشين، ويصب لأيور كأسًا يضعه بين راحتيه ليستدفئ به في هذا الليل البارد وهذه الغرفة الرطبة.

ينام أيور مغتالًا بـ«مدن الملح».

وينام ياسين مغتالًا بـ«الحق في الرحيل».

بعد منتصف الليل بساعتين، نسمع صرير باب المنزل ثم باب غرفة أيمن، يدخل بسرعة ويغلق الباب وراءه، من دون إحداث أي ضجيج قد يوقظ الآخرين، يحترم الجميع، فلا يزعجهم بدخوله المتأخر، فتى جامعي طويل

القامة أسمر البشرة، يضع نظارتين طبييتين، سميكتي الإطار، جسمه ممتلئ ورياضي، مختلف تمامًا عن أسامة، لكنه محاط بالأغاز، صامت، لا يتناول وجباته في البيت بل في الخارج غالبًا، في المطاعم أو السناكات المنتشرة بالمدينة، في ساحة الأندلس القريبة من المنزل.

يدخل في هدوء ويخرج في هدوء، وكثيرًا ما يبيت عند أحد أصدقائه بالحي الجامعي، ولكنه أيضًا يشارك الآخرين بعض سهراتهم، خصوصًا حين تنتهي الدراسة وتبقى تلك الفترات الميته من السنة الدراسية كالعطل البينية، فلا يجد بدءًا من مرافقة ياسين وأسامة وأيور.

ينحدر أيمن من أحد الدواوير المجاورة لمدينة تزنيت، أسرته فقيرة، فضل الدراسة بتارودانت معتمدًا على نفسه في تحمل تكاليفها وكل مصاريفه اليومية الأخرى، تلك القوة الجميلة ولحظات الحسم التي تميز قراراته، تجعله منسجمًا مع نفسه، النظارات الطبية تمنحه تلك الجدية فيبدو أكبر من سنه، يبتسم دومًا في وجه أيور، ويردد كلما رآه:

- والله تا راك عزيز أودي أيور. (والله تراك عزيزًا عليّ يا أيور).

وتلك حقيقة فأيور لا يمكن إلا أن يحبه الجميع، ليس فقط لأنه أصغرهم، ولكن أيضًا لطبيعته ومواقفه وبساطته.

ينام أيمن بسرعة ويطفئ نور غرفته.

الليل،

عنوان الأحلام والكوابيس،

الهدوء المقفر الذي يحضن المسافات الباردة بين الواقع والمتوقع، الكل نائم، بيت سفلي رطب، بثلاث غرف، يحضن البدايات، في مدينة عمرها خمسة آلاف من السنين، وثقل أسوارها يجثم على الحضارات التي مرت من هنا، وكأن كل شيء فيها ينطق تاريخًا، الدور والرياض، النوافذ بنوافذها الحديدية، المشربيات، الأقفال والنواقيس، الأزقة الضيقة، التراب والناس، اللهجات والحكايات، أن تعيش في تارودانت يعني أن يسكنك الماضي بثقله، وإن كانت لديك ذاكرة مثقلة بماضٍ شخصي معقد يكون ألمك مزدوجًا؛ ألم المكان والزمان.

الليل،

لا يغطي التفاصيل بالظلام، ها هم نائمون يلاحقون الأحلام قبل أن تنام، كما المدينة بين الأمس واليوم، قطعة من فتات لغة وحريق من التاريخ والذكريات، يا مدينة الآمال المجهضة ومقبرة الأحلام الزرقاء، قومي من صمتك وليلك، وانثري الأزهار على أجساد البؤس والتشرد.

لا مجال للرهان على الحزن، إنها مقايضة خاسرة، في زمن الشح العاطفي، أيتها الليل الحالك الخجل، قم وغط أبناء المدينة، وصل عليهم صلاة الفرح، إنهم مهووسون بالصمت.

ليل رودانة دائم التحول، ليس فيه صخب وليس فيه هدوء.

## -٤-

استيقظ أيور مبكرًا كعادته، صلى الصبح وعاد لفراشه، ليعيش في مدن الملح قبل أن يصل موعد إرجاعها لمكتبة القاضي عياض التي استعارها منها، وعند الساعة السابعة تمامًا أعد فطورًا له ولصديقه، شاي وزيت زيتون وحببات زيتون سوداء، خرج لإحضار الخبز من مخبز الوداد، خبز من دقيق الشعير أو خبز «المحراش» كما يسمونه، ساخن ولذيذ ورخيص الثمن. زيت العود ومحراشة، شعار المغاربة إذا تناولته على الفطور لن تحتاج غذاء قبل الثالثة بعد الزوال، ربما لصعوبة هضمه وربما لكمية السميد المنثور فوقه، ويزيده زيت الزيتون لذة.

صباح عادي إذن، فبعد قليل سيتوجه أيور وياسين، إلى ثانوية ابن سليمان الروداني مارين عبر صابة سيدي وسيدي المظلمة ليل نهار، ثم يدلفان لساحة الأندلس ويمرون عبر حي سيدي أحساين، إلى المسجد الأعظم.

- صباح الخير ياسين.

- صباح النور أخويا أيور.

- لدي حصة رياضة في العاشرة أرجو أن تترك لي الحذاء الرياضي.

- حاضر أنا لن أحتاجه اليوم، إنه لك ولكن لا تضرب الكرة بقوة كي لا يتمزق.

- وينخرط الاثنان في ضحك صباحي ينعش الروح.

تناول ياسين الفطور بسرعة وارتدى ملابسه فوق ملابس النوم، لأن الجو بارد جدًا، وسرواله الجينز يحتاج سروالًا آخر تحته ليشعر داخله بالدفء، يقال دومًا إن ألد لحظات النوم تكون صباحًا قبل الاستيقاظ مباشرة، هي لحظات لذيذة؛ لأن الجسد يكون قد تشبع بالراحة والحلم والدفء خصوصًا حين يكون عمرك ١٩ عامًا وجسدك يطالبك صباح مساء بشئونه الداخلية، كم من الاجتهاد يحتاج شاب للاستيقاظ باكراً والتوجه للثانوية مدفوعًا فقط بالرغبة في الدراسة والتعلم، هنا يختلف أبناء الدواوير عن أبناء المدن، ذلك الحافز الداخلي الذي يسكنهم ليتحدوا، وضعهم الاجتماعي والفقر والتهميش، ويدرسوا لأن الدراسة هي منفذهم الوحيد للحياة ودفع الفقر، ما ضيع أيور حصة واحدة طوال العام الدراسي، ولا ياسين، هو يتعجب دومًا من غياب الآخرين عن الجامعة رغم تبريراتهم بأن النظام الجامعي مختلف تمامًا ولا يحاسب على الغياب، فحتى أوقات الفراغ يقضيها في الخزانات الثلاث بالمدينة.

مرة واحدة فقط اضطر للتغيب عن حصة التربية البدنية، حين لم يجد حذاءه الرياضي الذي أخذه ياسين ليلعب مباراة في كرة القدم، هما يشتركان في حذاء رياضي واحد، ومن حسن حظهما أن حصص الرياضة مختلفة، قياس قدم أيور أصغر بقليل لكنه يزيد جوربين لتلائم قدمه قياس الحذاء. هذه الحياة اليومية للشابين لا تؤثر فيهما، إنهما يعيشانها فقط، دون تفكير.

ربما لأن الأهداف الكبرى تقودهما، وربما لأن الفقر يعيش مع صاحبه في توازٍ لا يشعر به الآخر مهما كان، اعتاد ياسين أن يرتدي جلبابًا رماديًا يرميه فوق

ظهره حتى لو ارتدى ملابس عصرية تحته، يشعر فيه بالراحة، عرف في الثانوية بجلبابه الرمادي.

لكنه الفقير، لا يؤخذ مأخذ العادة بل مأخذ الألم، ويترك جروحًا في القلب والذاكرة والتاريخ الشخصي، سيظل الحذاء الرياضي يوحد صديقين يعيشان نفس تفاصيل الحياة، وسيكون رمزًا للصدقة والحب، ولكنه سيكون أيضًا وشمًا خبيثًا على وجه الوطن، وطن يعيش أبنائه مناضلين منذ ولدتهم أمهاتهم.

غير مشكل اللغة المتوارث بين أبناء الضواحي؛ لأنهم يتحدثون الأمازيغية في الأصل والعربية هي اللغة الثانية، ولكن النظام التعليمي يعتبر لغتهم الأم هي العربية ويعتبر اللغة الفرنسية لغة ثانية ويضيف الإنجليزية، فباقي المواد الدراسية لا تثقلهم، ويجتهدون ليكونوا، يحاربون بلا سلاح لينتصروا على الزمن والقهر والحزن.

أسامة يستيقظ متأخرًا كعادته، يحضر الحصص المسائية فقط، لا يستطيع أن يستيقظ؛ لأنه يسهر كثيرًا، البارحة دخل البيت متأخرًا أيضًا، وكان في كامل أناقته، وفي كامل حزنه، دخل غرفته وأدار موسيقى هادئة من هاتفه، دخن ما دخن ونام كأبي حائر.

لذلك سيستيقظ بعد الظهر ليلتحق بالجامعة.

تدور الأيام وتستمر الحياة، البيت في حراك دائم، الكتب والدراسة وحيثيات اليوم الصعب، وبعض القلق.

بعد الرابعة يخرج ياسين رفقة كريمة في جولة حول الأسوار سيقضي معها وقتًا حتى غروب الشمس، يخرج من الثانوية وينتظرها قرب باب البلايع حتى تلتحق به، يجلسان خلف السور مباشرة، وراء نخلة قصيرة هناك، يتبادلان الكثير من الكلام، ويتجولان في المنطقة المحيطة بالسور، ما يجذبه لها هو هدوءها المثير، لون بشرتها أبيض كالحليب المبستر، عيناها واسعتان كقمر.

هكذا يصفها لأيور، لكنه لا يحبها، إنه لا يعرف معنى الحب، يخرج معها فقط، ليس بالمعنى الأمريكي المترجم لعبارة يخرج معها، لنقل يرتاح لها فهو لم ينبس ببنت حب.

الثانوية ملأى بالجنسانيات التائهة والقصص المشردة لقلوب حائرة تنهكها العواطف، تشردها العواصف كأوراق شجرة تين في فصل الخريف؛ حيث الحب يطرق لأول مرة أبواب قلوب جديدة، فتكثر التعاريف وتتضخم التأويلات، وكل يفهم الحب على قياس وضعه، الحب إحساس عند البعض، قلة عند الآخر، نظرة فقط، وتتعدد التعريفات لإحساس واحد.

هي مستعدة لتمنحه كل شيء، ولكنه لا يريد أي شيء الآن، يراقبها فقط، ويضمها بحنان كلما اقتربت منه، كانت تبدو له ثوبًا أبيض يكره تلويثه، لا بالحب ولا بالقبل ولا بالظلام، كم يحتاج من الحب ليتجنبها، كم يحتاج من الإيمان ليقول لا لجسد غض في الثامنة عشر من الحلم.

بقيا قرب السور في بقعة شبه مظلمة، يتحادثان في كل شيء في الدروس المملة، أساتذة الثانوية المتحرشين بالفتيات، الأستاذات المتبرجات

بسياراتهن تحت الدّين الحيّاتي الذي يستمر عشرات السنوات، تحدّثا عن أيور وشخصيته الفريدة، وعن كل ما خطر على بالهما، حتى طائر السنونو الذي خرج على غير عادته من عشه بالسور، راقباه حتى عاد لحضن التراب.

بدأت هذه اللقاءات منذ التقاها في أول يناير في المكتبة المدرسية، تحمل رواية «أغمات» ليوسف فاضل، واستعارها منها قبل أن تعيدها، قال لها:

-أريد أن أقرأ وراءك كي أشم المعاني التي أضافتها عينك للسطور.

كان يريد أن يشم رائحتها على الصفحات، انبهرت به أو بلغته، فقد بدا مختلفاً عن أولاد الثانوية، بسرّاويلهم المتدلية المنزقة، وأحزمة لباسهم الداخلي التي تظهر الثلث السفلي للظهر، كانت تبحث ربما عن شخصية روائية كالتّي اعتادتها وهي القارئة النهمة التي عاشت داخل الروايات أكثر مما عاشت خارجها، حتى بدا لها عالم الثانوية تافهاً حد الغرابة، فكان ثقل شخصية ياسين يجذبها، بالعمق في نظراته، بإصراره على الحياة، وابتسامته الدائمة، جملته عن تتبع معاني السطور خلفها مثيرة، ربما لم يقصد ما قاله، لكنها لم تقرأ جملة كهذه في رواية من الروايات التي مرت تحت قلبها، الشبان عادة يلقون بشباك دون أن يقصدوا اصطياذ قلب؛ لذلك ربما لم يتقدم ولم يتراجع عن اعترافه، وبقيت العلاقة بينهما في حدود اللقاء الأول، واللقاءات المتكررة، ولم تمتد لتصهر الجسدين ولا القلبين في كانونها الدافئ.

سألته يوماً عن أيور قائلة:

- كيف حال أيور؟ كم هو لطيف صديقك.

فقال لها:

- تركته يكتب، بعد كل قصيدة يخرج منهكًا لا منتصرًا ولا منهزمًا، كأنه ترك نصف جسده بين القوافي.

فقالت:

- الدواخل لا تتحطم تلقائيًا، والحروب لا تحدث داخلها، إن الخراب يتسرب إليها من الخارج، وكأن عليه أن يبني سقفًا جديدًا بعد كل انهيار لغوي داخل قصيدة.

استمرت تتحدث عن أيور كأنها تعيش معه، ربما تلك القصائد القليلة التي قرأت له كافية لتقتحم عبرها عالمه، بل ما وراء عالمه، ياسين يحب أن يقرأ شعر أيور تحت الأسوار برفقتها، وكانت تستمع له وكأنها تصلي، تعرف عمق أيور ولا تعرف سطحه، وهذا بسبب الشعر، لعنة الشعر التي تجعل الإنسان يتواصل مع الدواخل ولا يدرك الخارج، فأنت يمكنك التواصل مع شاعر من القرن الثامن عشر وتنشأ معه علاقة تفاهم لغوي لم يجربها شخص قبلك، فتحبه وتكرهه وتغار منه أحيانًا، وتعتقد أن لا أحد فهم شعره عبر التاريخ غيرك أنت، تنسج معه علاقة روحية لا صلة لها بالزمان ولا بالمكان ولا باللغة، تشتركان في إحساس خاص استطاع أن يعبر عنه هو بدلًا عنك، فتظل تلك الجمل المتنقلة روحياً تسري من جسد إلى جسد وتهب للعميقين فرصة الحياة على هامش سطحية الآخرين، تقول إن هناك في مكان ما وزمان ما رجلاً مثلك عاش ليقول لك كلامًا خاصًا تكفلت النسائم بإيصاله لك، وذلك

الشاعر نفسه يعرف أن شخصًا سيولد في غير زمانه وسيحب شعره فتجده يطعمه بالرسائل المشفرة، رسائل لقارئ لم يولد بعد.

وإلا لمن كانت الشاعرة الأمريكية إميلي ديكنسون تكتب تلك القصائد التي أخفتها بين ثنايا الأظرفة وأغلفة الرسائل التي كانت تتلقاها، وكانت تكتبها بقلم الرصاص الذي يمكن أن يمحو تحت أي ظرف، كلمات قوية على شكل خربشات موزعة على مساحة الغلاف وفي كل زاوية منه، تشطيبات ورموز حية، توترات عاشتها في وحدتها، كأنها تنتظر ذلك القارئ المستقبلي الذي سيفهم كلماتها ويقدرها، ربما تكتب للأحد، ولكن هذا مستحيل فالمعنى لا بد له من حاملين، مرسل ومرسل إليه، ذات الرداء الأبيض إذن كانت تكتب لشعب آخر بين غلاف وآخر، تكتب شعرًا قابلاً للإتلاف إذا لم يجد روحًا تهتم به.

قد يشعر ياسين ببعض الغيرة، فهي تتحدث عن الشعراء بقداسة الأولياء ورهبة القديسين، تقول إن حساسية أيور للغة مبكرة رغم صغر سنه.

ربطت كريمة علاقة لغوية مع أيور، كانت علاقتها إذن بياسين أقرب للصدقة منها للحب، فاعترافه المنتظر لم يحدث بعد، ما الذي جعله يقف عند عتبة قلبها فلا يدق الباب ولا يقترحهم؟ ما الذي منعه من الاسترسال في قصة حب عادية قد تستمر وقد تنقطع؟ رغم أنه يحتاجها حقًا إلى جواره، وينتظرها كل مرة بلهف خفيف، ربما اعتادها فقط، والاعتیاد على شخص أحيانًا يكون أقوى من الحب نفسه، ربما اعتقد أنه لن يخسرها يومًا ما دامت مشدودة إلى علاقتها به، يؤكد دومًا لأيور أنه لا يحبها، ولكنه في نفس الوقت لا يجرؤ على الابتعاد عنها.

حدث ذات غروب والمدينة تودع نهارًا ساخنًا من أواخر مارس، حين بگر الربيع واكتست الحديقة خضرة ونظرة، تأخر ياسين وكريمة في جلستهما المسائية، وكانت تقعد إلى جواره، ولكنها اقتربت أكثر هذه المرة وأسندت رأسها إلى كتفه، إلى أن مست جبهتها عنقه، وكانت مرتبكة وحقنته بارتباكها، تسمر في مكانه ولم ينفعل، مما زادها ارتباكًا وجنونًا فالتصقت به أكثر.

وكانت فوقهما نخلة تميل ميلاً خفيفًا إلى السور حركتها ريح غربية دافئة مما أسقط بعض تمرها عليه فما كان له إلا أن يلتقط ما جاد به صدرها.

يجب أن نسدل الستار على الارتباك وأن نترك شابًا في سن ياسين يتصرف على طريقته.

عاد إلى البيت متوترًا فحكى لأبور عن كريمة وغرابة أطوارها اليوم، قال له إنها بدت راغبة في البقاء معه حين فجأة تعكر مزاجه، وأنهى جولتهما المعتادة في صمت أشبه بالجنابة.

هو لا يحبها ولكن للجسد منطق آخر وحسابات مربكة، فالذاكرة تحمل معها صور الالتصاق والشفاه المرتعشة، والحركات الربيعية والعيون الذابلة، الذاكرة والصور في مواجهة الجسد، وياسين تمنعه مروءة في داخله ولا يريد تلويث ثوب أبيض.

أخبره أيور أنها تستعمل آخر أسلحة المرأة معه؛ لأنها مصرة على الإيقاع بقلبه، كما لتبرهن له أن الحجر يذوب مهما كانت صلابته، وأن المرأة وحدها قادرة على تليين الحديد بالوقت والانتظار.

مساء عادي جدًّا رغم التأخر في العودة للبيت، بعد التاسعة مباشرة تناول الصديقان حساء أمي زهرة، وشطيرة السردين عند عبد الرحمن، وعادًا إلى غرفتهما الرطبة، مرورًا بالصابئة المظلمة لسيدي وسيدي المغطاة بالقصب المدعم بألواح الخشب، والباب الواطئ للمنزل السفلي، أيور دخل فراشه رفقة مدن الملح، وهو ينظر بسمعه إلى حالة ياسين دون أن يحادثه أكثر.

ياسين يحمل في عينيه شفاه كريمة، ويتردد في قطع علاقته معها، ما يحيره أنه متأكد تمامًا أنه لا يحبها، وكثيرًا ما ردد على مسمع أيور أنه لن يقبل فتاة لا يحبها، ففي الأمر إهانة للحب والقبلة معًا، لا يريد أن يجهد نفسه في التفكير، فالجسد لا يفكر وترسنة الرومانسيات التي بناها بقلبه وعقله رفقة الروايات الرعوية لا تصلح بعيدًا عن الحب، تعريفه للحب إذن يقع في معجم متعالٍ عن الجسد، في الحرف السابع والعشرين من الأبجدية العربية التي أسست للحب بعيدًا عن القبلة وجعلت له صنفين، حبٌّ عذري مرتبط بالروح، وحبٌّ شهواني مرتبط بالجسد، فكان لا بد لكل عربي أكثر من امرأة ليمارس معها كل صنف على حدة، ما الذي دفعه ليلقي شباكه أول الأمر ما دام لا يريد سمكًا؟ أي نزق للشباب، كان -ربما- يراهن على رفضها، يراهن على التمتع الأولي لأي أنثى.

- هل تعتقد أنني يجب أن أقبلها وأضمها؟

- لا أدري إنها مسألة حميمية.

رتاج النقاش تقدم وانزلق ليقفل باب الموضوع، وتقدم الليل أيضًا، نام أيور ولم ينم ياسين، كانت الصور تحيط به، تمنعه من الهدوء والسكينة، الجسد

متقلب المزاج وصهد في الداخل، القبلة لا تبلل الشفاه بالرضاب بل تبلل الروح، وتعشش كطائر السنونو في عمق السور دون أن تدمره، السور لا ينحني ليقبل النخلة فقد يتدمر التاريخ من أجل شهوة عابرة.

ساعتان بعد منتصف الليل وياسين يتقلب في فراشه، لم ينم ولم يستيقظ، ظلت صورتها تحوم حوله كطيف، لو أنه لم ينزعج فجأة ولم يقيم من مكانه، لو أنه فقط تحدث معها في الموضوع، ولم يصمت ذلك الصمت الجنائزي المريب.

لو ليست في التاريخ.

سمع أزيز الباب الخارجي، وخطوات أيمن ثقيلة أكثر من العادة، يتجه إلى المطبخ ويصب في حلقه هدير الأوعية ماء يسمع صوت انصبابه داخل جوفه، ويلج غرفته، يشغل موسيقى خفيفة من هاتفه النقال الجديد، تهرب خيوط الموسيقى إلى أذن ياسين النائم المستيقظ، فتضاف آهات الشاب حسني إلى أرقه،

ما ضنيتش نتفارقو

من بعد عشرتنا

يا اختي ولفتك

وأنتي ولفتييني.

قام ياسين من مضجعه، نظر إلى أيور الذي يغط في نوم عميق كطفل، فابتسم بفرح، أيور مصدر فرح حقيقي، اتجه نحو غرفة أيمن يدق بابها

بلطف، فتح له أيمن الباب واستقبله بعناق خفيف، وقال له:

- أنت من الساهرين؟

- من الساهرين، تفضل بالجلوس، خذ مكانًا، أتمنى أني لم أزعجك بالموسيقى.

- لا أبدًا خذ راحتك، اليوم منذور للأرق.

يرتدي أيمن شورتًا أزرق غامقًا ومخططًا بالأبيض، فجو الغرفة خانق بسبب الرطوبة، رغم انخفاض الحرارة، وضع مزيلاً للعرق، فهو لا يستطيع أخذ حمام في هذا الوقت المتأخر،

نظر أيمن إلى ياسين وسأله:

- لم السهر؟ الليل للعشاق.

- ما أنا متأكد منه مائة بالمائة أني لست عاشقًا، ولكن سهري من سهر العشاق.

الليل للحيارى، ذوي الاحتياجات العاطفية الخاصة، الليل لغرباء النوم، من أصحاب محلات مراقبة النجوم، ما عاد ليل دفء الحالمين ولا سكيننة المسافرين عبر التأمل، الليل للحيارى للغائبين عن أنفسهم.

- كيف هو أيور؟

- أيور نائم، كان يومه متعبًا.

- أنا دخلت للتو، كانت ليلة غريبة، غادرت البيت ولم أغادره، ما رأيك بي؟

- كيف؟ ما رأيي بك؟! أنت إنسان طيب وصديق لم نر منك إلا خيرًا في خير.

- أنا لست كذلك أنا لست طيبًا.

- لم تقول هذا؟

- لأنها الحقيقة.

- لا أعتقد أنها حقيقة.

- لا يهم ما تعتقده أنت، المهم أنها حقيقتي أنا.

في الليل تنحبس الأفكار داخل الجماجم كما ينحبس الهواء الرطب في هذه  
الغرفة المختنقة بالأحلام.

غادر البيت دون أن يغادره.

تناول سيجارة من علبة كانت ملقاة بجواره قرب الفراش، واستأذن ياسين  
في التدخين، دخنٌ بهدوء عميق كمحترف سجائر، رغم أنه لم يبدأ هذه العادة  
إلا قبل شهرين.

سنتناول كسكسًا على الغذاء، حاول أن تأتي مبكرًا وأحضر معك أيور، نريد  
أن نجتمع حول طبق مرة واحدة في الشهر على الأقل.

- ومن أين لنا بالكسكس؟

- ستحضره السيدة راضية زوجة صاحب البيت.

- هذه أول مرة، المهم اتفقنا على ذلك، فليكن غذاءً مباركاً ليوم مبارك.

- المهم أنه غذاء.

ضحك الاثنان، وراحا ينصتان للشاب حسني من جديد، وبدأ التعب يتسلل إلى عيونهما، انسحب ياسين إلى غرفته، وبقي أيمن ينفث دخان سيجارته الثانية، وهو شارداً الذهن.

غادر البيت ولم يغادره.

غداً سيستقبل صديقاً له في غرفته، تعرّف إليه عبر الدردشة الفيسبوكية، وجاء لقضاء يومين في تارودانت، هو من مدينة تزنيت، مسقط رأس أيمن، كان قد زاره قبلاً ومكث معه أسبوعاً كاملاً.

نام أيمن بعد السجارة الثانية.

ونامت الجدران ونام الليل وكان صمت.

ما يريده كل إنسان من الليل هو النوم، أن ينام بسرعة، دون إحساس بضيق الساعات أرقاً، أي إنسان إنما يتوجه للوسادة كي يستسلم للموت، كي يرسو على شيطان الراحة الجسدية، دون ضجيج، دون تقلبات ودون مواجه، لا يحدث هذا دائماً، فبعض المواجه والأحاسيس تنتظر أن يحط الرأس على الوسادة كي تستيقظ وتنشط فوق سقف الغرفة، وترقص رقصاً، تنتظر أن يكون هناك وقت يضعف فيه الجسد كي تستشري بين الرؤى والأحلام والتعب. في الليل تنمو الفواجع كأنها تتغذى بالظلام والصمت وأصحاب

القلوب المملوءة بؤسًا، فقط يشعرون بما يشبه الانكسار قبل النوم، كأنهم أمام معركة جديدة ضد الصور والمرايا والانعكاسات والمراثي النهارية.

أحيانًا نستيقظ وتستيقظ معنا جيوش الأحلام والكوابيس والهموم، تفر من معنا وتسير جنبنا لترافقنا لمقاعد الدراسة، تظل تلك الأشياء ملتصقة بنا طوال اليوم كظلمتنا تتشكل بتشكلنا، وغالبًا ما تنبعج لتعبر عن دواخلنا لا عن مظهرنا.

ولكن الليل لا ينتصر دائمًا على الإنسان فقد يحدث أن تهدأ الأرواح وتستكين للفجر والشمس.

والبيت الرطب ما زال يحوي أجسادًا رطبة، تطل بخجل على عقدها الثالث، خارجة للتو من مراهقة مستنقعية، حائرة، وفقيرة كحذاء متسول، إنهم نائمون كأنهم يسبحون في مرج فوق سحب أبيض ناعم، يأخذون طاقة كافية ليكملوا الحياة، أو ما تبقى في هذه الحياة، سفينة تسير وأجساد تكبر وأحلام تتحقق وأخرى تندثر وتموت كبويضة لم تخصب.

ما دامت العين تغفو فهناك فسحة أمل، والقوافل تستريح في عمق الصحراء، لكنها تستمر في المسير حتى تصل إلى الواحات المرغوبة.

صدئة جدًا تلك القلوب التي لا تنام، أو التي تنام اغتيالًا بمخدر أو منوم.

كقلوب القطط المشردة التي تموء ليلاً، وهي تتنقل بين دروب المدينة، تخرج من حي «تدجنت» قرب ضريح سيدي وسيدي وتدخل عبر الصابة المظلمة لتركض في ساحة الأندلس، تجتمع قرب محل بيع شطائر السمك المفروم

لنتشمم بقاياها، بقايا أقدام العابرين وتلحق ما تبقى من ماء السردين على  
أرصفة الطرقات.

كذلك بعض القلوب المشردة، لا وطن لها غير لفائف الحشيش، وأنخاب ماء  
الحياة، أو معجون مسكر وخليط زيت الكيف، وأشياء أخرى تبدو أحن على  
الذاكرة من التذكر وأقرب إلى الموت والغياب والنسيان منها إلى الحياة.

كقلب أسامة الذي لم يعد هذا المساء لغرفته، لم يذهب إلى الجامعة، بل إلى  
مدينة أكادير؛ حيث قضى النهار والليل هناك، قلب متسكع الرحلات، قلب  
ضبابي الغموض، يدري ما لا يريد، هذه هي الحقيقة التي استنتجها أيور من  
حديث البوح، الشفاف والثقيل.

سيدخل حوالي العاشرة صباحًا ليختبئ داخل غرفته، وينام حتى المساء،  
لن يحدث أحدًا ولن يستيقظ رغم جلبه الطلبة وقت الغذاء، بعد ذلك يتناول  
المأكولات التي جلبها من أسواق السلام الكبرى بأكادير، ويسهر منكبًا على  
كتبه حتى الفجر، يعمل بجد على دروسه، كتابة وتمريًا وتلخيصًا وحفظًا.

## -٦-

صباح جديد إذن، لا يحتاج منا كلامًا، ما دامت الأشياء تتحدث من حولك، فأنت تسير فقط وتنظر إلى الحركة تدب في الأرجاء، الخضارون بالسوق القديمة يعدون الخضر، يضعونها في مجموعات من ثلاث ثمرات تسمى كل مجموعة حزمة ، بدرهم واحد للحزمة، إنه سوق الفقراء، يمكنك يوم الجمعة أن تحصل على ثلاث حبات جزر وفت وقطعة قرع وقلقل وطماطم وبصل بخمسة دراهم فقط، غالبًا ما تكون الخضر غير طازجة تمامًا، ولكنها تصلح لصنع طبق الجمعة، النسوة يتكلفن بشراء الخضر غالبًا، يضغطن على الجزرة، يتشممنها، يذقنها وقد يتغامزن حولها مع الخضار، خصوصًا إن كان من النوع النزق كبعض فقهائنا المشهورين الذين يخلطون بين جزرة وجزرة.

أصحاب عربات النعناع والبقدونس والكزبرة، وباقات أخرى من المنسمات، يبدأون في عرض سلعهم الخضراء.

يصطف المتسولون قرب الضريح وعلى جنبات مسجد سيدي وسيدي، وعلى طول حائط الزاوية، إنه يومهم المبارك.

ياسين استيقظ متأخرًا، ليس لديه أي درس اليوم، ما أن فتح عينيه حتى بدأت صورها تحوم حوله من جديد، تعجب من نفسه، هو الذي يستيقظ خالي الذهن، ولا ينتبه لأحواله إلا بعد أن يغسل وجهه، ها هو يستيقظ وذهنه يسرع في بث صور الأمس التي ظلت تلاحقه حتى اقترب الفجر، بعض

الأفكار لا تنام، تبقى قربك حتى تستيقظ لتمد يدها لك من جديد، هي ملحمة  
جداً، تبدأ عند آخر سطر تركتها فيه قبل النوم.

يطارده شبح كريمة كلعنة، في المرآة فوق المغسل، على الجدران، وحتى في  
حبات الزيتون وكوب الشاي الدافئ، كخدها الذي احمر وتوهج تحت حمرة  
الغروب ودفء الأسوار، ها هي تسكنه، استعملت السلاح الأخير لكل امرأة  
تود الإيقاع بأعتى الرجال، تقدم له نفسها في طبق ساخن.

كم يحتاج من الإيمان كي ينساها؟

في العشرين من العمر حين تحبك امرأة ينتج جسدك مضادات الرفض، لا  
يمكنك أن ترفض، لا دخل للقلب بالمسألة، فكل عضو يتحول إلى قلب، للعين  
قلب، للشفاه قلب، للصدر قلب، للأصابع قلب، للعنق قلب، وكل قلب يطالب  
بحقه في الوصال.

يتنقل ياسين بين الغرفة والمطبخ والمرحاض وهو مندهش من نفسه، يحدث  
في داخله شيء لا يستطيع وصفه، ليس هو عنف المراهقة الأولى ولا صدمة  
القبلة الأولى، بل هي الحيرة التي تولد حين ينفصل القلب عن الجسد،  
ويحصل هذا الأخير على استقلاله فتصبح خلاياه متمردة، تدخل في حلف  
حراية ضد مبدأ الحب، عندها فقط يتسرب منطق آخر إلى شاب في  
الباكالوريا، منطق من ثلاثة أحرف يسمى «جنس»، له مواصفات جديدة  
وممرات سرية أخرى توصل إلى دروب الشهوة والفعل اللذيذ الذي يقف له  
التاريخ أحياناً.

يعبر ياسين بتثاقل رغم أنه لا توجد مسافة بين غرف البيت، فلا يوجد ممر ولا باحة، يجلس على فراشه ويمروح على وجهه بدفتر من فئة أربع وعشرين ورقة.

من يقود الجسد، الحب أم الجنس؟

أيور الذي خرج مبكرًا كعادته ليدرس بالحديقة العمومية، لأن قلة الإضاءة بالغرفة صباحًا لا تسمح له بالقراءة، عاد في العاشرة ليجد صديقه مرميًا على فراشه، فاغزًا فاه فاتحًا عينيه اللتين يبدو عليهما السهر.

فقال له:

- تبدو عليك علامات الحب كطيور الربيع.

وانفجر ضاحكًا، الشيء الذي زاد من اندهاش ياسين من نفسه، فبدأ يلمس وجهه كأنه يحاول مسح علامات الحب البادية للعيان.

بعد ساعة، دق أحدهم باب المنزل، فتحه أيور ليجد رجلًا في الثلاثين من العمر يسأل عن أيمن، دعاه للدخول في انتظار أن يوقظه، جلس الرجل في الغرفة قرب ياسين في تواضع جميل رغم أناقة لباسه التي تدل على أنه ميسور الحال، طقم كلاسيكي رمادي وقميص أسود مكوي بعناية، حذاء ملمع كوجهه الأسمر، جوربان من ماركة مشهورة تبدو عليهما علامة المصمم.

دق باب غرفة أيمن ليطلبه بضربات خفيفة لم توقظه لذلك فتح الباب ودخل بلطف ليحركه:

- هناك ضيف ينتظرك، استيقظ يا أيمن.

- اه، شكرًا أنا حقًا في انتظار صديق لي من البلدة.

- لقد وصل، إنه بغرفتنا.

- أنا آت. أشكرك.

نظر الضيف حوله وقال ليمد الحديث لهما:

- كيف حالكم مع الدراسة؟

- الحمد لله، كل شيء على ما يرام.

دخل أيمن وسلم على صديقه وعانقه بشدة، كأن بينهما تاريخًا من الصحبة، وهذا ما اعتبره ياسين وأيور أمرًا غريبًا، وأرجعوه إلى كونه قد شم فيه رائحة مدينته، وربما قرينته، انسحب الاثنان إلى غرفة أيمن ليستمرًا في الحديث عن الدراسة والعمل والحياة حتى عاد المصلون من صلاة الجمعة.

أحضر ابن راضية قصعة من الثريد بالدجاج البلدي تكفي عشرة أفراد، اجتمع حولها الطلبة ومعهم ضيفهم الثلاثيني الأنيق الذي ملأ الجو ضحكًا ونكاتًا، كانت أغلبها بذيئة تأفف منها أيور بسبب طبعه الخجول.

بعد ذلك غادر الجميع البيت متجهين إلى قضاء أغراضهم، رافق أيمن صديقه وخرجًا في جولة بالمدينة، لرشيد أجندة عامرة هذه المرة، وربما عليه أن يحضر كل خمسة عشر يومًا ليتم مهماته هنا، هذه المدينة السعيدة التي

ينقصها الحب على حد تعبيره، وكأنه مدير شركة عالمية لتصدير المشاعر النبيلة.

ياسين وأيور اتجها للثانوية وبعدها لمكتبة القاضي عياض لاستبدال رواياتهم بروايات جديدة؛ حيث حصل أيور على الجزء الثاني من مدن الملح، وحصل ياسين على رواية أغمات ليوسف فاضل، وعادًا معًا بعد اقتناء شطائر السردين المفروم عند عبد الرحمن.

عادًا معًا، لم يفكر ياسين في كريمة طيلة ما بعد الظهر، ربما لأن رفقة صديقه ألهته عن التفكير في ذلك، لكن حمرة المساء ذكرته أن عليه أن يسهر مرة أخرى رفقة طيفها الملح.

مساء ربيعي هادئ بمدينة تارودانت، حرارة معتدلة تسمح للشارع بأن يرتدي ملابس خفيفة ويحتفي بالجولان، المدينة شابة جدًّا، الشارع طفل يتقافز، إنها مدينة رقيقة، خافتة الخطى، خصوصًا مع انسحاب النهار وانبساط الليل، مدينة تجعلك تفكر وتتأمل، في صمت، فالسور يتحدث باسمك والأزقة الضيقة والأبواب القديمة وشبابيك النوافذ، عليك أن تسير فقط وتشم عبق الماضي، وتستكين للروتين والتكرار، فالمدن الصغيرة وحدها تسمح لك برؤية نفس الوجوه مرات في اليوم، فتشعر بالألفة والراحة التي تخلقها الأجواء الدافئة والوجوه العادية المبتسمة دومًا، إنه شارع يرحب بك ويحضنك.

هذا ما تشعر به وأنت تسير في مجمع الأحباب مرورًا عبر طريق معهد التعليم الأصيل وساحة الأندلس، وهو عصب المدينة، منه يمر الجميع وعلى طوله مقاهٍ ومطاعم كثيرة ومحلات ملابس وغيرها.

ما يعطي للشارع حيويته هن تلميذات المعهد، هن ملح هذا العصب وسكره، كما تشكل النسوة المكتنزات ملح سوق جنان الجامع بجلايبهن الملونة الممتلئة وحركاتهن المتمرغة في الشبق التاريخي لنسوة المجتمعات التاريخية، وهن يحادثن صاحب المحل أو مساعده غالبًا، وهن يقسن الثوب أو يخترن قطعة داخلية مستفسرات البائع عن رأيه وعن المقاس المناسب لصدورهن، وهو يتعمد أن يخطئ ويعطي دائمًا مقاسًا أصغر، حتى تعدن لتغيرنه في الغد.

كل هذا يثير رشيد، الضيف الذي زار أيمن من مدينة تزنيث، يقول إن تزنيث تنام باكراً، ولا تترك فرصة التمتع بالساعات الأولى من الليل، ويقول إن جنان الجامع، هذا السوق التاريخي، لا مثيل له بالمغرب، إنه مليء بالأربعينيات ذوات الصدور الحنونة والسخية، وهي نعمة على الجميع التمتع بها.

كان هذا حواراً مع أيمن الذي أصبح يرى المدينة بشكل آخر، ورائحة الحناء والبخور والتوابل والملابس والشيوخ والزعتر والصابون البلدي أصبحت تثير لديه رغبة في معانقة النساء في جنان الجامع والاحتكاك بهن وهن يضربن بالتاريخ يميناً ويساراً.

كثير من المحلات بهذا السوق مقسمة إلى قسمين، يفصل بينهما باب أو ستارة سميكة أو عالية بدون سلم، ومخدع تجريب الملابس غالباً ما يؤدي إلى محل مخفي بعناية في الداخل.

دروب سرية للشهوة تحتفي بما وراء الظاهر لتسكن الهوامش والخوافي، وتستشري في عالم سري مغلق، مواز لعالم الظواهر، كغيبات إنسانية، كالخبيات غير المعلنة، وراء الستائر المنقوشة بالصمت والاختفاء والهروب.

الرغبة تضع لنفسها مناطق محمية ضد النظر، منفلة من المناطق المنكوبة لحروب الكبت وعدم الشعب، كمحرمات لذينة تبني نفسها بين اللذة والخوف، والرغبة السريعة الهاربة، الجوع القاتل الذي ينخر الدواخل يظهر في حواشي الحياة ليقول أريد أن أكون، أريد أن أشبع، كل جسد حي يقول في ثورة شعبية أريد أن أكون.

قبل شهرين حين عمل أيمن مع زوج راضية في محل بيع الملابس النسائية، لاحظ أن السقيفة تؤدي إلى غرفة في السطح كان يستريح فيها صاحب المحل عند الظهيرة؛ لأنه يفضل البقاء في السوق بدلاً من الذهاب للبيت؛ حيث هرج الأولاد كما يقول، يدرس أيمن أربعة أيام فقط ويقضي الباقي في المحل، صاحب البيت هو نفسه مشغله، يفضل أن يسميه زوج راضية بدلاً من سي علال، رجل ستيني، تاجر قديم في السوق، خبرته واسعة في المساومة والبيع، حين طلب منه أيمن العمل عنده لم يتردد، بل أصبح يعتمد عليه دائماً خصوصاً في أيام العطل المدرسية.

أسامة لم يبرح غرفته منذ الصباح، يدرس وينام ويستمتع للموسيقى، يسمعه أيور حين يتمطط بقوة مصدرًا صوتًا، يفرقع ظهره ويمطط يديه وعنقه، يركز جيداً على دروسه ليعوض ما يفوته كل أسبوع من دروس جامعية.

ليل الطلبة عنيف جداً والثريد الذي أحضرته راضية له مفعول الشمس، التوابل السحرية ورأس الحانوت، نكت وحكايا رشيد، وتعليقاته على الثريد موجهاً الكلام لأيمن:

- راضية هذه صاروخ وقادر علة منطقة.

كانا وحدهما بالغرفة، ياسين وأيور لم يدخلوا بعد، سيتجولان في الخارج حتى منتصف الليل، عادة ما يفعلان ذلك، يتحدثان في كل شيء، حتى يغلبهما النوم على كرسي في الحديقة أو متكئين على السور أو فوق باب السلسلة.

لغة رشيد كلها إيحاعات يسهل حملها محمل الطيش؛ لذلك ينجذب إليه أيمن، ويظل يضحك من مزاحه وتعليقاته التي تنتهي دائماً في حجر أنثى.

حديث الرجال فيما بينهما عن الجنس يولد تلك الرغبة اللعينة في الإمساك برأس الحكاية، إن الحكى هو ما يعطي تلك الهالة للرغبة، وليس الفعل ذاته الذي ينتهي بالفراغ، رشيد يحكى مغامراته لأيمن، يضيف بعض الشهرىارية لجسده، وينفخ فى دنجوانيته، أيمن يصدق، فالحديث عن الجنس فعل جنسى آخر له استعمالاته وإمكاناته المتعبة.

لفافة حشيش رابعة لرشيد، بعدها سيخرج فى منتصف الليل، يرافقه أيمن لباب الخميس التاريخى، وتحت الصابة يلتقيان صدفة بأيور وياسين عائدين من جولتهما.

رشيد لديه أجنده عامرة، زوجة سائق الشاحنة الذى يعمل ليلاً تنتظره، تترك الباب مفتوحاً كي يدفعه بخفة وهو يدخل كي لا يشعر الجيران بدخوله الغربى، وسيخرج قبل الفجر، كلص الشهوة، يسرق من الليل طرفاً محدداً ليعيشه مع زوجة السائق التى تضع لأطفالها منوماً كي لا يستيقظوا فجأة ويباغتوها بطلباتهم الليلية.

كل ما تحب أن تسمعه هو أن بنات الشمال لسن أفضل منها، هى الجنوبية السمراء، تنتهى حصتها دائماً بالهذيان، تقول:

- الأحمق يضع فى كل مدينة أنثى، يعتقد أنى حمقاء، هاتفه مليء بأرقام العاهرات، من كل المدن التى يمر منها، حين تنتهى رحلته فى طنجة يبيت الليل مع الصفراء الشمالية، عليه اللعنة.

يعود رشيد بعد الفجر، يستعمل المفتاح الذى تركه أيمن معه، ويدخل فى صمت لينام فى فراش إضافى أعده أيمن، ينام حتى الظهر.

ياسين وأيور نامًا رغم تأثير الثريد الملكي، نامًا مغتالين بمدن الملح وقصائد  
نجيب سرور.

أسامة لم يخرج من غرفته كأنه في سبات دراسي، يمكن أن نقول عنه غريب  
الأطوار، يظل لصيقًا بحاسوبه وكتبه، فهو لا يغادر غرفته إلا ليحضر بعض  
الحصص الدراسية أو ليذهب لمدينة أكادير نهاية كل أسبوع.

عاد أيمن في الحادية عشر، أعطاه سي علال عطلة لبقية اليوم وطلب منه  
الاستعداد ليوم الأحد الذي يتطلب عملاً مضاعفًا، فهو يوم السوق الأسبوعي،  
حين عاد إلى البيت التقى راضية تحت صابة سيدي وسيدي، تحمل قفة  
بلاستيكية بها وجبة غذاء سي علال، أحضرته باكراً على غير العادة؛ لأنها  
ستذهب في زيارة لأمها بحي القصة، اقترح عليها القيام بالمهمة بدلاً فقبلت  
بذلك، ثم سألته وهي تبتسم:

- لم تقل لي رأيك في الثريد البلدي؟

- كان لذيذاً، لكنه ليس ألد منك.

ضحكت ضحكة انتفخت لها حدودها السمينة، وظهرت أسنانها البيضاء  
المتراصة رغم الظلام تحت الصابة، ثم استدارت تمشي وهي تضرب التاريخ  
يميناً ويساراً، تزن مرتين أكثر من وزن أيمن الذي يبدو أمامها طفلاً شرها  
أمام حلوى.

حين وصل إلى جنان الجامع نزل عبر السلالم الإسمنتية واستدار يساراً ليصل  
إلى المحل، ولكنه وجد عصا المكينة أمام الباب، وهي إشارة معروفة تدل

على أن صاحب المحل غير موجود ولا يجوز الدخول إلى المحل؛ لذلك أخذ كرسيًا من المحل المجاور وجلس عليه ينتظر ظهور سي علال.

بعد نصف ساعة تقريبًا، لاحظ أن عصا المكنسة لم تعد موجودة، ربما انشغل بحديثه مع التاجر الآخر ولم يلحظ عودة سي علال ودخوله.

في المحل فتاة في العشرين من عمرها تختار بيجامة من الموبر الناعم، وملابس داخلية، في فرح خرجت دون أن تدفع لسي علال ثمن الملابس، بل غمزته بخفة وهي راحلة، أما سي علال فقد صعد للعلية ليرتب فوضى الأسرار الحمراء، وقد علا وهج أحمر وجهه بعد أن شرب من كأس الشباب. أيمن لا تفوته حركات سي علال، يعرف جيدًا أن الرجل الستيني مراهق في داخله، وأن السقيفة المقفلة تحضن عقود الموت اختناقًا بالشهوة.

وقف طويلًا وهو مسمر أمام المحل، نظر إلى المشهد بعجب مشوب بالتقبل الممنوع، فقد كان يعلم أن السقيفة المقفلة في وجهه تخفي عالمًا موازيًا، حين وجد نفسه أمام الموقف مباشرة حاول أن يتراجع، ولكنه في مهمة وعليه أن يوصل السلة لسي علال ويعود، بدت له شخصية ربّ عمله كزجاج أسود له وجهان، وجه مشرق يحمل سطيلة الضوء كل صباح وكل ظهر وعصر، ووجه أسود يرتدي قناعًا حين يصعد إلى العلية، كان أيمن يتلعثم من فرط دهشته وكاد يفرغ محتوى السلة على الملابس المرتبة أمام باب المحل، تماسك رغم ذلك، وبقي ينظر إلى خيوط لحية الحاج وهي تتحول إلى أسلاك شائكة تصدأ شيئًا فشيئًا، وفي غمرة سهوه رأى بيدر قرитеه وراء بيت عائلته ورأى تبنًا تذرّوه الرياح.

انحنى يسلم على الحاج الذي رد التحية قائلاً:

- بارك الله فيك يا بني.

رحل أيمن وهو يدخن سيجارته بعصبية، بحقارة، كأنه ينفث نارًا من جوفه  
وليس دخان سجائر.

مساء السبت في الحديقة العمومية تغطيه أقنعة الموظفين ببذاتهم الرياضية التي لا يتريضون فيها أبدًا، بعربات أطفالهم ومرضعاتهم ولعبهم وعطشهم الأسبوعي للارتقاء على العشب والتراب، متسولة تجر عربة أطفال مهترئة تضع عليها كومة ملابس وعلب سجائر قصد البيع، وهي في الحقيقة عاهرة قديمة بالمدينة تحمل معها صور العاهرات وتعرضها على الزبائن في الحديقة العمومية، تأخذ حصتها في عين المكان وتعطيهم رقم الهاتف، وهناك عربة مثلجات ملونة كقلوب الأطفال المتحلقين حولها.

ياسين وأيور يجمعان كتبهما بعد حصة مراجعة استمرت من العصر إلى ما قبل غروب الشمس، يتمططان تعبًا من استلقائهما مدة طويلة تحت شجرة التوت.

لمسة حزن غامض وروتيني تغطي وجه أيور، حزن الشعراء كما يسميه صديقه، النوع الذي يضيء على الشخصية عمقًا خفيًا يجعلك تميز الشاعر عن الإنسان العادي الشاعر الذي يرى ما لا يراه الآخرون فقط، الشاعر لا يكتب في لحظة حزنه القصوى دائمًا، بل يكتب أيضًا في حالة بلوغ تأملاته مبلغ الكتابة، درجة الوجد الحرفي على الورق، تلك النقطة من الرغبة في التخطيط التي لا يستطيع الشاعر نفسه وصفها وهي تهجم عليه دون سابق إنذار حتى لو عقد معها معاهدة سلام أدبي.

وهناك أحزان عميقة لا تلد شعرًا.

سيذهبا ليضعا كتبهما وما يثقلهما في الغرفة ويخرجا للتجول مرة أخرى،  
حياة الطلبة تدور حول التجول بالمدينة كل مساء؛ كي يصنعوا تلك البهجة  
الرقيقة بينهم، وحتى يصنعوا علاقة مع مدينة عاشوا فيها أو سيعيشون فيها  
سنوات من حياتهم.

المدينة هي الشوارع والأزقة والناس والوجوه، هي الطابع العام لروح المكان  
والذي تستطيع أن تمسكه فقط في الجولات المسائية، قبل وبعد الغروب  
مباشرة، في تارودانت أينما وليت وجهك فهناك سور ترابي يقف كالأب  
أمامك، يحضنك أحيانا حتى يدفئك ويرفضك أحيانا أخرى كابن عاق بسوره  
الآجوري.

من ساحة الأندلس دلف الصديقان عبر حي سيدي أحساين أمام كتّاب سي  
عيسى، وخرجا محاذيان للمسجد الكبير، ثم باب السلسلة الأثري في اتجاه  
طريق آيت إعزة حيث يكون الهواء منعشا لا يحده سور، ولكن الطقس أمسى  
بارداً ومتقلبا.

باقترابهم من مستشفى المختار السوسي، تغير مزاج ياسين، لأول مرة يشعر  
أن الأسوار تتنكر له، أسوار تارودانت الدافئة بشموخها القديم تنظر إليه  
وكأنها ستتهار عليه.

البرد قارس والمعطف لا يقيه شر الشرر في عواطفه،

رغم رفقة أيور شعر أنه وحيد وبائس.

كرجل الثلج المتروك في الحديقة الخلفية للمنزل،

بارد جدًّا وحزين.

أي وجع يلفه.

بعض الأجساد تتلبسها حالة الطقس، فتننتج العواصف في دواخلها، وتنقلب كورقة خريف في مجرى الريح.

يطلب ياسين من أيور قراءة بعض القصائد، رفض في البداية لكنه استسلم أمام إلحاح ياسين، فراح يقرأ عليه بعض الشذرات التي خطَّها على مذكرته وهو شارد في القسم، شذرات حزينة.

الشاعر يجد دائمًا مكانًا منعزلًا يدخله وحده ولو كان وسط جوقة الحياة، مكان تخلقه صورة تلو الأخرى، تسير به إلى أماكن قصية من العالم ليرتاح فيها وحده، وسر كتابة الشعر هو ذلك الإختلاء بالذات في ذلك المكان القصي. لا نعرف تمامًا كيف تُبنى القصيدة في ذهنه، وربما هذا ما يجعل الشعر مفارقًا للحياة ويبدو بعيدًا جدًّا عن الأرض.

العرب يصدقون الأشياء فقط لأن الشاعر قالها، كأنهم يعلمون أنه يستوردها من بلاد الصدق، وهذا ما تعتمد الأمثال والحكم الشعبية أيضًا؛ حيث تصبح للقافية سلطة السيف، وما يكون موزونًا يكون فرضًا اجتماعيًا.

أيور بصوت رخيم يقرأ على قلب صديقه بعض النوتات الحزينة مما حفظه من مذكرته:

«سأكون ما أريد

أَتَتَبِعُ أَحْلَامِي حَلْمًا حَلْمًا

أَحَقِّقُ مَا تَيْسِرُ مِنْ حَلْمِي الْعَنِيدِ

أَسْنَدُ ظَهْرِي لِلنَّارِ وَأَمْضِي

مَتَكَنًّا عَلَى صَبْرِي

سَأُدْفِنُ الْمَوْتَ فِي صَدْرِي

وَأَمْضِي....

تلك الغيمة البيضاء

ترتدي الأبيض حدادًا عليّ

إني أسقي الوهم بالحقيقة.

وانتظر أن ينمو الصدق في الحديقة، أيها الأنت لا تنظر إليّ باستغراب إنك

تزيد من شكي بنفسي

ومن عتمة الدواخل

لستُ كما تظن، أنا سائل داخل كاركاس يبرق من شدة الحزن

أنا هلامي كمعجون الموت

أحاول أن أحتفظ بي داخلي في سكون وهدوء فقط، يعتقد الجميع أنني  
صلب كحجارة، مبالغت كصنارة، ولكني أسوأ من ذلك بكثير،  
أنا مغلف ببلاستيك معتم يمنع تسرب الحرائق إلى خارجي كي لا يحترق  
العالم.

وأصفي ماء الحزن الثقيل زلاً كي لا يؤذي كليتي  
لا يشتعل سوادي إلا لينير درب قنبلة تنفجر داخلي وترديني حيًّا.

الماضي السحيق

يرفل داخلي

في ثوب غول

ويشرب من دمائي

ومن حرائق التبن

والنول

ويصطفي من قلائد الفوضى

شظية لتكسرني

فأحيا من جديد

منبعثًا من رمادي..

فأنا كائن أولد بعد موتي

«كالبذرة لا تنمو إلا بعد الدفن»

- هذه النثرية ابدعتها للتو، لا أصدق أنك اشتغلت عليها قبل اليوم، أليس كذلك؟ قال ياسين.

- نعم هي كذلك.

كثيرًا ما تأخذه اللغة مأخذ التماهي، فيسير في الطرقات ويحدث النجوم بالصور، ياسين يحب أن يسير جنبًا إلى شعر، يرى أيور يتشكل جملاً، يراقص الكلمات على الرصيف المبتل ببعض قطرات المطر التي فاجأت الجميع هذا المساء؛ حيث تلبدت السماء بالغيوم فجأة فبكت دون سابق إنذار، السماء أحيانًا تشعر بشهقة عميقة فتنفجر بكاء، السحاب الحزين الأسود لا يرشح مطرًا إنه يعتصر دمعةً ودمًا.

- «أنزف صمًا كحديد الشبابيك الحديدية، معلق إلى جدار الريح أراقب هطول الشمس على باحة البيت الطيني الذي ولدت فيه، أسير إلى الوقت، وأغني لحنًا من جوف القيثارة، أجاري نغمًا من أنين الحاضر، وأراقب هطول الفرح.. قطرة.. قطرة.. قبرة.. قبرة.. أغانق ما أعانق، وهما، حقيقة، دفنًا، بردًا، سلامًا، أعانق صدري وأشعر بالدفء، أبحث في جوف الليل عن جزئي لأكمل بعضي».

- ما أعمق ما تقول، هل كنت تكتب في القرية؟

- لا، المدينة، الغربية، الضياع وسط الحشود، التعدد، الصمت، هذه الأشياء هي التي تجعلك تكتب، أما القرية والطبيعة والوادي وموسيقى حفيف الأوراق وزقزقة العصافير، فتجعلك تنصت فقط، تكون إنساناً فقط دون عقد كابية.

عاد أيور وياسين قرابة منتصف الليل، أعدًا عشاءً خفيفًا من البيض والطماطم، ونامًا مباشرة، بعد جولة في أعماق كل منهما، يشعران كأنهما طافًا العالم جيئةً وذهابًا، والحق أن أغوار النفس البشرية تحتوي مسافات طويلة بمنعرجات متشعبة، على من قطعها أن يستريح في سرير الحياة الهاديء المسروق من أوقات الليل الساكنة.

اغتيال الضجر المسائي شعراً يجعل للنوم مذاق الوجود المكثف، ورغبة في الحلم على إيقاع هدوء صحراوي المدى، رغم الألم الحاد الذي يرافق القوافي المهمة دومًا في أقاصي النفس البشرية.

تكور ياسين على فراشه مقمطًا في لحاف بني كطفل.

وتمدد أيور في استرخاء ماسي كنبته دوار الشمس مغلقة التويجات.

النفوس المتعبة تستريح من وهج الحياة.

أيمن ينتظر عودة صديقه المثقل بأجندته النسائية العامرة بالمواعيد، وهو يفكر في علاقته براضية التي شجعه عليها صديقه منذ البداية، قال له إنه سيعيش في نعيم كأنه في حضن أمه وحبيبته في نفس الوقت، ماذا سيستفيد من راضية؟ سيستفيد جسدًا ثخينًا سخيا، وحضنًا دافئًا في الصباحات الباردة المملة، حين يستيقظ الجسد وينتصب مطالبًا بالمتعة، ينتظر خروج سي علال إلى المحل، وخروج الأولاد لمدرسة عبد الله بن

ياسين المختلطة، يصعد للطابق العلوي للبيت؛ حيث تنتظره راضية في غرفة على السطح، وتعد له فطورًا أشهى من فطور سي علال، تفرغه من شهوته ومن جسده، وتملأه حضورًا يرضي غرور رجل في العشرين من عمره رفقة امرأة أربعينية العشق، بدوية الطبع، نهمة ولا تشبع.

يفكر فيها هروبًا من التفكير في حالته التي لا تعجبه، شعور متكرر بالندم بعد كل لقاء ينتابه، يقول: أي عالم متسخ هذا؟ ولكن في غمرة تفكره تستولي عليه رغبة جامحة في أن يستظل بصدر الأربعينية راضية زوجة صاحب البيت.

منذ شهر ديسمبر حين صادفها في الممر المظلم ورمها بكلمة شهية وهي تضع نفسها رهن إشارة شهوته، أو الأصح أنه يضع جسده رهن إشارة هرموناتها، بدأت العلاقة سرية الحضور في حياته، حتى أنه ينساها بمجرد نزوله من السطح، لكنها بدأت تستولي عليه وتغدق عليه بالوجبات والطواجن والهدايا، كلما تأخرت المنحة الدراسية منحتته من لحمها وجيبها.

لكنها لا تشبع، أحيانًا تبدو له كبقرة معطاء وعليه أن يكون ثورا هائجًا، لكنه لا يكون كذلك دائمًا، ويعافها أحيانًا، لكنها ورطة، ورطة لذيذة بداية بطعم الجنس المتاح في الصباحات النزقة، فحين يقضي الشبان وقتهم بين البيت والثانوية أو الجامعة في تعديل سراويلهم وامتصاص ثورة الصباح الجنسية، يكون هو مع موعد مع طبق يعادل ضعفي وزنه شحمًا، هذه المتعة السهلة ما تمنها يا ترى في هذه الحياة الذئبة؟

هي تريد ذلك وسي علال يهملها كتحففة في البيت القديم، أيمن لا يجبرها على شيء لكنه يأخذ منها ما يريد، وقد يطلب منها ما يحتاجه كبطاقات شحن الهاتف، مصروف الجيب، والهاتف الذكي نفسه هدية منها.

ولكنها لا تشبع - يقول أيمن- وهذا ينهكه كشاب يحتاج إلى طاقة للدراسة، ينهكه أنها تمتص كل رحيقه بخبرة عقود من الجنس مارستها مع سي علال حين كان مفتونًا بها، ومع آخرين حين أحالها على التقاعد معتقدًا أن الجمر يخبو، ناسيًا أن بعض الثورات العشقية تبدأ متأخرة في سن الأربعين.

يدخل رشيد حاملاً معه عصير أفوكا طازجًا في كؤوس الاستعمال مرة واحدة، يباع قرب مسجد مجمع الأحباب في محل يضع شعارًا له: عصير من أجل صحتك ورجولتك، عصير أفوكا مع خليط من بودرة الجوز واللوز وال فول السوداني، وبعض حلويات الكريم شانتي في علب بيضاء بأشرطة ذهبية، يضعها على الطاولة في غرفة أيمن ويدعوه لشربها مازحًا كعادته، ولكنه يبدو منهكًا كعامل ضيعة زراعية رغم ضحكاته الهستيرية أحيانًا، كؤوس استعمال مرة واحدة، وقلوب مستعملة كأنها مشتراة من سوق المتلاشيات، وبدأ يحكي لأيمن عن يومه:

- زوجات المهاجرين تحف والله تحف، كانوا لا يبرد أبدًا، والجميل فيه أن خبزه طازج دومًا، تصور خبز تنور طازج وساخن، كانت تنتظرني بلهفة، رغم أنني أعلم أنني لست الوحيد في لائحتها، طبعًا فأول شروط العمل ألا تطالبها بالوفاء، ولكن عليك أن تمثل عليها دور الرجل الذي يغازي يبقى للعلاقة طعم الحميمية كسرًا لا يعرفه إلا أنتما، لا يمكن لنارها أن تنتظر شهرًا كي

تنطفئ، وهي لا تنطفئ، قتلتني المجنونة، ولكن جيبها العامر يشفع لها، ورنه  
دمالجه الذهبية موسيقى جاز بالنسبة لي، سأسحبها منها دملجا دملجا...

- هل مررت بالبار؟

- نعم نعم، شربت بعض البيرة الباردة في بار قصر السلام.

- الأمر واضح، فلسانك منطلق يتحدث في أكثر من موضوع.

- أخبرني أنت كيف تسيير أمورك، كم بلغت لائحتك؟ لا تنس أنك طالب، حدد  
جدولك جيدًا، وخذ منهن أكثر مما تعطي، هن بائسات لكنك لست مسؤولاً عن  
بؤسهن، أنت تحتاج إلى المال والمتعة، كل امرأة تحتضن بركائناً يحرقها،  
عليك أن تنظر في عينيها كي تشم الرغبة الكامنة فيها، هي مستعدة لتدفع أي  
شيء مقابل المتعة، يحتجن الحب والاهتمام، أنت ستمنحهن الاهتمام فقط  
فالحب لا يباع في القناني، وستمنحهن رائحة الرجل الاستثنائية، التي لا  
مثيل لها والضرورية لحياة المرأة، أغلبهن تزوجن لأسباب اجتماعية، كي لا  
يبرن ويتأخرن عن قطار الزواج، يقبلن أي رجل مهما كان، يبحثن عن وضع  
أسري يبدو في الظاهر متماسكاً، لكنه ليس كذلك، هناك حرمان وجوع  
وعطش، وعليك أن تروي هذا العطش بمائك النادر، ماء الحياة.

- أنا ليست لدي لائحة، حتى الآن ترضيني راضية.

يشير بأصبعه إلى السقف، ويعني الطابق العلوي حيث ترقد راضية.

ارتدى رشيد في فراشه قرب أيمن كجثة هامدة، وراح أيمن يفكر كيف  
انتقلت علاقته برشيد من المواقع الافتراضية إلى الواقع، كيف التقيا في

موقع الدردشة وتعارفًا حين أخبره رشيد بكل تفاصيل حياته وعلاقاته مع النساء، وسر تشبته بعبارته الشهيرة: الأربعينيات هن النعيم.

استسلم أيمن للنوم وهو يتثاءب، وانقطعت سلسلة أفكاره بعد أن غطى رأسه بملاءة خفيفة وعدّل وضع وسادته كأنه يطرد الصور من فراشه، هو ليس عامل جنس لتكون له لائحة.

ونام بيت الطلبة محتضنًا قلوبًا حائرة لا يمكننا إدراك حيرتها، قلوبًا ناشئة على مرّمى من الجمر الكامن تحت الرماد.

هو الليل سيد المسافات الطويلة في الحياة، لكنه ليس دائمًا حالك الهدوء، فظلامه الموحش لا يعني السكون دائمًا، فهناك قلوب مغتالة حلمًا ترتمي ولا تنام، وتنام ولا تستريح، هناك قلوب يومية الفزع.

أسامة لن يعود الليلة، يختفي نهاية الأسبوع بمدينة أكادير الساحلية، ويعود يوم الإثنين ليرتمي في غرفته يعمل على حاسوبه، هو من أوائل الطلبة رغم غيابه المستمر، أكادير مدينة عاهرة، تعرض نفسها على الأرصفة والكورنيش، تحتفي بالعب الليلية والبارات، تطحن الروح وتصنع منها عجينة المتع العابرة، والسهرات البراقة الخاطفة، المال سيد الموقف.

في أكادير فقط يستطيع أسامة أن يعيش حياته الثانية الموازية لحياة الطالب الجامعي المجتهد، حياة صخب ومال وعلاقات غريبة، كيف يحصل على ملابس من بوتيكات مارينا أكادير، من أين له كل هذا الترف؟

حين باح لأيور تلك الليلة لم يذكر كل شيء، قال فقط أنه يرافقهم، يرافقهن، يستمتعون بشبابه وابتسامته، أيور لا يستطيع أن يدرك أن أصحاب الجيوب العامرة لهم نزعات غريبة، وأن برجوازية الجيب تجعل للجسد وضعًا وجوديًا راغبًا في الاحتراق شهوة وبؤسًا.

أيور كعادته لا ينسج عن الآخرين أفكارًا بل يكتفي بتعريفهم في ذهنه حسب ما قالوا عن أنفسهم فقط، في حدود ما قالوا عن ذواتهم، لا يتخيل حياتهم بعيدًا عن أقوالهم، إنه منشغل بنفسه عن الآخرين، لكنه ينصت لهم جيدًا، ويؤلمه أن يحكي أسامة عن نفسه بجنون وسرية مربكة، غلامية فظيعة لا يريد أيور أن ينسجها عن طالب جامعي يبدو له عاديًا طيلة أيام الأسبوع، كأى رجل، ولكن تلك البذرة من الشك تنمو بسرعة رغم الجفاف الذي يمنع الماء من الوصول إليها.

أحيانًا نفضل ألا نعرف عن الآخرين تفاصيل حياتهم كي تبقى الصورة التي نسجناها حولهم صحيحة، ونستطيع بسهولة أن نتعايش معهم بعيدًا عن نظرة الغرابة والاختلاف المريب.

كل إنسان يسير بخطى متثاقلة لصنع حياته كما يريد، هو، صحيح أننا لا نحصل دائمًا على ما نريد، لكننا نختار ما نريد ونحاول الوصول إليه، تلك الرغبة المتحركة إيجابًا وسلبًا داخلنا، ترتفع وتنخفض كزئبق داخل محرار الوجود.

أحيانًا ننتشي بكل مقاطع الحياة ونستطعم كل الساعات والثواني، وأحيانًا نستبطئ مرور الوقت في انتظار وقت أجمل قد لا يأتي.

أحيانًا لا نفكر، نعيش فقط، كل يوم يشبه الآخر، ولكن هؤلاء المتعبون من الوجود يكرهون الروتين ويكرهون التكرار، يبحثون عن شيء جديد دائمًا، شيء لا يعرفون ملامحه بالضبط، ولكن يبحثون فقط.

قد يكون سر امتلاء أسامة طيلة الأسبوع هو خاؤه يومي السبت والأحد.

يسمونه «تعمار الراس» ولكن التسمية ليست صحيحة، إنه إفراغ، فلا يمكن أن تمتلئ بالفراغ والنسيان والغياب والسّكر واللاوجود، الامتلاء يكون فقط باليومي والعادي والحضور.

وبعد أن يعود أسامة للجامعة يصبح نشيطًا، يبعث في رفاقه حيوية خاصة، تجده في القاعة إن حضر يناقش المحاضر وي طرح أسئلة في عمق المادة، وتجده في المقصف يتناول قهوة سريعة التحضير بين حصة وحصة، ويعرج على المكتبة ليستعير منها كتبًا ومراجع.

وفي الساحة بين الإدارة والباب الرئيسي للجامعة حيث الحلقات الطلابية، يبقى واقفًا يستمع لخطب المناضلين من الطلبة عن التعليم والديكتاتورية، حقوق الإنسان والطبقية، كل فصيل فرح بما لديه من مرجعيات وخلفيات، الطلبة الصحراويون يناقشون الحكم الذاتي والانفصال التام، طلبة الحركة الأمازيغية يدافعون عن الحقوق اللغوية والثقافية، فصيل العدل والإحسان المستولي على الاتحاد الطلابي له طريقة خاصة في بناء المنهج، الطلبة الثوريون وتشي جيفارا يحملون صور المعتقلين والشهداء.

أسامة يعرج على كل الحلقات، وهو مقتنع بكل ما يروج في كل حلقة، مقتنع تمامًا، كل مطالبهم مشروعة وحقيقية، ولكن ما لا يفهمه هو سر الصراع

بينهم، فكل فصيل ليس خالصًا تمامًا، خصوصًا الطلبة الأمازيغ والصحراويون، الكثير منهم يجد نفسه مزدوج الانتماء، فالمنتمون لتخوم الصحراء هم أمازيغ في لغتهم ولباسهم وعاداتهم، هناك شريط بين منطقة سوس ودرعة والصحراء فيه قبائل أمازيغية تعيش حياة البدو الصحراويين، وهناك صحراويون يعيشون مع الأمازيغ في القرى والمدن ويتحدثون الحسانية. الهوية التي تصاغ في الحلقات هوية مترفعة عن الواقع، والصراع وليد جهل بالأمر على الأرض والواقع، العنف الجامعي كما يعتقد أسامة وليد الجهل والتعصب والبناء الخاطيء لهوية مزيفة لا تؤمن بالتعدد والاختلاف.

هوية عصبية تتكون من عصب واحد، لغوي فقط، أو ديني فقط، أو عرقي فقط، دون أن يعلموا أن الهوية متعددة في داخلها ومتحولة وأن قوة الإنسان لا ترتبط بالهويات الصغيرة المحدودة بالعرق واللغة والمكان، الانتماء ليس انتماءً واحدًا بل هو انتماءات كثيرة متداخلة كخليط غير متجانس إلا حين تقبله بكل ألوانه وأطيافه.

أسامة تعجبه خطابات الحلقات والفصائل الجامعية كلها ويجد فيها نفسه ومطالبه، ولكن لا يتقبل الصراع الطلابي الذي يخرج من الساحة الفكرية ويصل إلى العنق والإجرام والقتل، إنه مرتاح جدًا في عدم انتمائه لأي جهة، فالأيديولوجيا كما قال أحدهم تعطيك الحقيقة ولكن من وراء زجاج، وحين ينتمي سينظر إلى الآخر المختلف كعدو أو على الأقل كمنافس في الساحة الأيديولوجية والسوق السياسي.

لذلك يفضل أن ينتمي لجسده، كآخر وحدة انتماء يؤمن بها.

تكون تارودانت مدينة لعينة أحياناً، في صغرها لعنة وفي فضائها لعنة، فهي لا تستر كالمدين الكبيرة أخطاء ساكنيها، إنها قرية في هيئة مدينة بأسوار حزينة، تخفي وتظهر، تستر وتفضح، وهذا ما يخيف أسامة دائماً، هذه المدينة الملعونة قد تسحقه يوماً لذلك يهرب إلى مدينة أكادير، ليعيش حياة أخرى لا يفهمها غيره، فأكادير عالم بلا خرائط، ليست لديها ذاكرة، عكس هذه المدينة التي تحتفظ بالماضي كله حتى ماضي الأشخاص والغرباء عنها.

صباح الإثنين دائماً بطعم العمل والدراسة، صباحات الإثنين كلها كذلك، مصابون باكتئاب يوم الإثنين، يهرول الكل نحو مقرات عملهم ومقاعد الدراسة إلا المعطلون عن العمل، يستمر الأسبوع عند الطلبة عادياً، تتناوب عليهم فيه أوقات فراغ ودراسة ومساءات دافئة أحياناً وباردة أخرى.

إلا أن الإثنين ياسين ليس كباقي الأيام، ففيه يلتقي كريمة بعد الخامسة عصرًا، هو أول لقاء له بها بعد تلك الجلسة التي بدت فيها كريمة غريبة ومحمومة، نزقة وخائفة.

السور ثابت كعادته ولا يتحرك، إنه هنا منذ عصور مضت، بدأ يتفتت، شفراته تبدو أضعف من أن تصد عدوًا وأساساته بدأت تظهر حجاراتها، ولكنه واقف كرجل يحرس التاريخ، أمام قصر السلام يمر ياسين رفقة كريمة، صامتين كبرجين من السور نفسه، فجأة بدأت تتحدث عن الدراسة كي تملأ الصمت بالثرثرة العادية، الفتيات خبيرات في ذلك، بإمكانها من فراغ أن تتحدث عن ضفيرتها التي ترفض الاستسلام للمشط هذا الصباح، عن اختيارها للحقيبة اليدوية التي تلائم لون مرتب الأوراق في مادة العلوم الطبيعية، عن شجارها مع أختها الكبرى التي تريد أن تفرض عليها ارتداء الحجاب باستمالة الأب إلى صفها واستقطاب الأخ الأكبر الذي بدأ يرخي العنان للحيته، وهو أمر ترفضه تمامًا، لا تناقش الحجاب بقدر ما تناقش علاقة اللاتكافؤ مع بقية أفراد أسرتها الذين يحاولون جعلها سبورة أخلاقية يعلقون عليها وصاياهم الأخلاقية، ويحاولون فرض سيطرتهم على جسدها وفكرها، وهي تدري جيداً

أن ماضي الأخ الأكبر كان من أكبر مشاكل العائلة، هو الذي استيقظ ضميره فجأة بعد أن دخل مرحلة اكتئاب خطيرة حين تسبب في حمل كاذب لفتاة صاحبها، كريمة ليست متأكدة من أن الحمل كاذب حقًا أم أن عائلتها هي الكاذبة، كانت أمها هي الأكثر تدخلًا في الموضوع أما الأب فلا يعلم شيئًا، اختصاصات حراسة الشرف دائمًا تقوم بها النساء، كان يؤكد لهم أنها فتاة ابنة دارهم أي أنها فتاة محترمة، وأنه ضحك عليها باستجلابها إلى بيت صديقه باسم الحب، ولكن الأم لم تقتنع بذلك، وقالت له إن حروب النساء جديدة عليه وأنها أعلم بحيلهن، حتى لو كنت عاطلاً عن العمل، حتى لو كنت نصف رجل فقط سترغب بك البنت، قالت له الأم، وما أدخله فترة الاكتئاب هو تفكيره في ابنه أو ابنته التي قد لا يعرفها لو كان الحمل صحيحًا، كان مستعدًا لتحمل مسؤوليته، وقوة الضغط جعلته يتدهور صحيًا ونفسيًا لولا عناية الله وبعض المهدئات القوية، هذا قبل أن يكشف له صديقه أن فتاته تصاحب آخرين غيره، وربما تسبب أحدهم بحملها واختارته هو؛ لأنها تعلم مدى صحوة ضميره وربما تعلم شدة غبائه على حد قول الأم، انتهت القضية بحمل كاذب حقًا فقد كانت الفتاة تمثل دور الضحية، ولكنها كشفت له أن المرأة حدأة ولا يمكن أن تثق فيها، وانتهت القضية بصمت مطبق وبلحية منسدلة وتغيير جذري في المدونة الأخلاقية، التي ستطال ابنة الصغرى كريمة باعتبارها الحلقة الأضعف التي تحتاج حماية، فهي عنوان شرف العائلة وأي خلل أو شبهة ستسقط عرش الأخلاق داخل العائلة، أما الأخت الكبرى فكانت تخاف على سمعة العائلة من أجل زواجها القريب.

دخل معها ياسين في نقاش عن عائلتها وعن فرضية الحجاب، وكان نقاشًا عاديًا شبه عام يعتمد الكلام الراجح عادة في أوساط الثانوية، لا شيء حميمي

في نقاش على الرصيف العام، لا أحد يحاول إقناع الآخر، كأنها حفلة ملء الفراغ.

- أنت لا تحبني يا ياسين، قالت.

رد عليها ياسين متسائلاً:

- وما الحب أصلاً؟

- الأمر واضح جداً، أن تحب شخصاً يعني ألا تستطيع إمضاء اليوم دون أن تفكر فيه، أن ترغب في البقاء معه مدة طويلة..

- دعي الأمر للوقت فهو كفيلاً بكل شيء.

- أنت قاس جداً، يجب أن تعلم أنك تملك قلباً من حجر، لو أنني فقط أملك مثله لتعادلنا، ولكنني أحبك بجنون أنثى تضع كل البيض في قلب رجل واحد.

- هناك مشاعر لا نملك إزاءها شيئاً، نحن لا نصنعها، لكن نجدتها في داخلنا، كوليده في الأحشاء، ما نفعله هو أننا نرعاها حتى تكبر فقط.

- هل ستحبني يوماً؟

...

كان شموخ كريمة ينكسر جملة بعد جملة، كيف لأنثى تملك في قلبها من القصائد مقدار كوكب ألا تفهم ما بين السطور والكلمات، هي تعلم أن هناك هامشاً لقول لا أحبك، أشد فراغاً من هوة سحيفة قد تردم بفلسفة حب تولد

للتو، والمرأة هكذا غالبا لا تستسلم بعد أن تفرد جناحي الحب على قلب رجل؛  
لذلك ارتدت قناع ابتسامة كأنها في حفلة تنكرية وقلبت رصيف النقاش  
ورمت بآخر جملة في سلة المهملات العاطفية.

قفزت من الفرع المفاجئ الذي انتابها وقالت له:

- أنا أحبك وهذا يكفي.

وعادت إلى ضفيرتها الطويلة تفتلها بين أصابعها في توتر مخفي بإحكام،  
وهي تردد اسم ياسين وتقول إن أجمل ما في اسمه هو رنة السنين التي  
تصدح في الكون حين تردد اسمه في حلمها ليلاً.

وبضحكة خفيفة قال لها:

- يا مجنونة يا هيلة.

قالها تحببًا فقد كان يعزها وينظر إلى جمالها الطبيعي، بدون مساحيق ولا  
تسريحات، لم لا يحبها ويلبي رغبتها في علاقة حب كتجربة أولى لهما،  
فالحب في أيامنا عبارة عن تجارب ندخلها بملء إرادتنا، والحب في الثانوية  
عملية واضحة المعالم، فلان مع فلانة وفلان ترك فلانة وانتقمت منه  
بالدخول مع فلان في علاقة وهكذا.

وسرعان ما تخلى عن ابتسامته الخجولة البلهاء وانخرط في جو الفرع الذي  
خلقته كريمة، صدق بسرعة مسرحيتها، ومن يدري وحدهن الفتيات لديهن  
تلك القدرة على قلب الطاولة بكعب عال وبتوتر عاطفي شديد العدوى، رغم

شحوب الموقف وسرعة الانفعال إلا أن الاثنین صدقًا وضعهما الجديد كشاب وشابة منخرطين في جولة حب حول الأسوار.

أزالت وزرتها ووضعتها في حقيبتها المدرسية وبقيت في كنزة صوفية خفيفة بلون فستقي غامق، كانت أكثر إثارة، هكذا بدت له حين طلبت منه مسك حقيبتها حتى تزيلها، حركاتها كانت قوية ومحسوبة على الإثارة الأنثوية التي تشتغل دائمًا بالتوازي مع الحركات العفوية العادية الأخرى، فالأنثى حين تعدل وضع ساعتها اليدوية يدور كل شيء حول معصمها، أما حين ترسل شعرها إلى الوراء فالجغرافيا تصير مبلة بالسواد، تصير مرقصًا للأغنيات؛ لذلك فكل حركة من كريمة تجعل ياسين محط اندهاش خصوصًا أنه خارج للتو من مراهقة قرؤية جلفة نحو حنان رطب الوقع على جسده، فبالنسبة لشباب القرية ابنة المدينة كانت حلمًا، بنت المدينة التي تفهم الحب وتفهم الخروج والجولات والمواعيد والرحلات، أما بنت القرية فرهينة ما بين فحذيتها ورهينة فكرة الزواج بأقرب رجل، وفي أقرب فرصة.

الحواس تفعل فعلها في ياسين.

ربما سيلعن الحب بعد قليل ويضمها في حنان زائد خصوصًا أن الشمس قد غابت، وأن مناطق مظلمة يعرفها العشاق الصغار بدأت تبدو له ملجأ سحريًا، وضع يده على كتفها فشعر بها تهتز تحت يديه، دون أن تتحرك أو تستجيب ولكنها تعلم أنها البداية فقط، جلسًا تحت شجرة الفلفل الأسود أمام باب العمالة في جهة السور قرب مقر الباشوية القديم، ليس على الكرسي الحديدي بل على قاعدة السور، فالكرسي مضاء بمسائط شبه عملاقة وضعتها البلدية لتضفي على السور حضورًا سينمائيًا في الليل.

جلسًا جنبًا لجنب وساد صمت طويل، وضعت يدها في جيب سترته الذي إلى  
جهتها، واتكأت على كتفه، وهو شارذ يفكر.

لا هو لا يفكر، هو جالس فقط تدور في ذهنه سيناريوهات الرغبة والحب  
والقبلة وكل أفلام فاتن حمامة وبلوغ حمدي، ساد صمت وضربات قلب تزين  
المسرحية بنوتات الشهقة اللذيذة المعلقة إلى العيون، والشفاه المنتظرة،  
ينسى الآن كل محفوظاته في مسجد القرية، وثنائيات الحلال والحرام،  
وسيحفظ فقط رحلة صداقة جميلة وعشق محموم، وسيفعل ما يفعله  
الشباب عادة، قبلة سريعة وأخرى أبطأ قليلًا وقبل مسترسلة أشد ببطأ...

بتلك اللهفة السريعة كاحتلامات ما قبل الفجر، يتخلص من ثقل الجسد وثقل  
اللحظة ويرتخي فجأة في عنف لذيذ.

شجرة الفلفل الأسود مبللة بالمطر واحتكاكها بالسور الترابي القديم جعل  
تربته تتطبع بحمرة غامقة.

هدأ ياسين ورفع بصره إلى المكان، واحتضن كريمة في ما يشبه الحنان، أو  
ربما فيما يشبه الإحساس بالذنب، وهي لا تعرف ما حدث بالضبط وربما لم  
تدرس فصول الذوبان من قبل.

هو لم يرد أن تنتهي الأمور هكذا، لكن غواية امرأة تنجح دائمًا خصوصًا إن  
احترفت الإصرار، جعلت أضواء المدينة تتلوى في عيونه، والسور معروف  
باندماجه مع الفصول.

لحظات ما بعد هذا اللقاء غريبة جدًا، حين يكون الجسد منهكًا باللذة الخفية تحت الملابس، بدت له صغيرة النهدين بين أصابعه الغليظة، مراهقة طائشة، وبدا له السور شابًا حقير الشهوة، أصبح عاريًا من حضوره ولكنه ظل ممسكًا بيدها لحظات قبل أن يقومًا في صمت ويسيرًا إلى جنب كالعائدين من الجحيم.

قالت له شبه غاضبة:

- كنت بعيدًا عني، كأنك في عالم آخر.

كأنها أشعلت حرائقه القديمة، بدا في دهشة كالمخدوع؛ لأنه عزف نوتات خارج الفرقة الموسيقية، كان يغني خارج اللحن، والأغنيات الثنائية تحتاج دومًا للحوار بين العيون، للمشاركة. كان في عالم آخر حقًا وكان عليه أن يصطحبها ببدء شديد، ولأنه لا يرغب في ذلك كان يسرح وحده ملتهمًا شفتيها النديةتين.

في عالم المتعة هناك معادلات جديدة للحشمة فيها تساوي هذه الأخيرة دائرة فارغة، وربما هذا ما أربك ياسين وأربك حساباته لهذا المساء، وجرأة كريمة أقوى مما توقع.

- لم أشبع منك.

قالت في حسرة.

لم يكن يتوقع أن ينتهي يوم الإثنين ببقعة في سرواله الداخلي، ولا بتجربة جسدية مراهقة، ولكن للمتعة خطط أخرى مباغتة وهجومية النزعة، ولم يكن

يعلم أن اللاحب من طرفه والحب من طرفها سيفتح الباب لضيف آخر يحمل سلاح الشهوة وأن العطش العاطفي ترويه الحركات الجسدية.

وكان نادماً،

الخطيئة دائماً خطيئة يتلوها الندم.

ولكنه ندم لذيذ لا يدع لك فرصة التذكر، فكلما حاولت أن تتذكر بغضب يشتعل الجسد من جديد ليمنحك تلك اللذة خارج الزمن، ويوصد أبواب العزوف ويفتح أبواب الرغبة في التكرار.

ودعها قرب باب الخميس وعاد محاذياً للسور وجلس في الجهة المقابلة لحي سيدي العربي وبقي هناك طويلاً شارد الذهن، ولكن البرد القارس جعله يعود للبيت ليغير ملابسه وينظفها وينام دون أن يتحدث كثيراً إلى أيور، ولكنه لم ينم حقاً، ظل طيفها يراوده ويعيد جسده إلى قشعريرة الجنس ويمنعه النوم بسهولة.

الشهوة قرار عميق وهوة سحيقة لا تردم، وكلما أرضيتها قالت هل من مزيد؟

احتضن وسادة الاحتياط، وضع عليها رجله اليمنى ونام بقلب حائر وجسد معذب، وروحه بعيدة جداً لا تتساعل.

أيور كعادته غارق في رواية جديدة مع إبراهيم الكوني ورباعيته الطويلة: الخسوف، مع الشيخ غوما والتفاصيل الدقيقة للصحراء الليبية، دائماً ينام مغتالاً من طرف رواية عميقة.

الأجساد مسكونة بالخطيئة والأرواح تدفع الثمن.

الأجساد مخدوعة بالشهوة، والعقل مكبل اليدين، هكذا تبدو الأمور أحياناً خصوصاً حين يكون الجسد منفصلاً عن مملكة العقل، الحقيقة أن الجسد غالباً ما يكون كذلك، في الصباح الباكر وياسين يستيقظ لأداء صلاة الصبح، أشعر بالخدیعة، أشعر أنه مزدوج الشخصية فكان بعض الإحباط يرافقه حين اتجه إلى الحمام الشعبي للاغتسال من الخطيئة، وهو يتذكر دائماً شفيتها الرطبتين والتهامه التفاحة القديمة، فيحترق حقاً في شأن قوة داخلية تدفع إلى الجنس وتسمى الشهوة، قوة قاهرة لا مناص من التحايل عليها دون مواجهتها.

أيور المسكون بالصمت، لم يطلب أن يرافق صديقه للحمام كالعادة، فهو يقدر شرود ياسين ويمتحن حرية السكوت، يراقبه عن بعد وينتظر منه الكلام.

تكون التجارب الأولى دائماً بطعم النصر والظفر، لكن مع شخصيات كياسين تكون النتيجة تعطيل الروح وهذيان الجسد، فورة بين الإقبال والامتناع، زحمة في القرارات بين النعم واللا، تكون اللذة مغمورة بالندم، رغبة حارقة ولهفة شبابية جارفة، ويقين قديم بالخطأ.

لن أعيد الكرة، ليس من حقي احتضان فتاة ضعيفة أمام شهوتها، ليس من حقي، حرام ما أفعله، حرام، حرام، يكفي أنه حرام. يقول في نفسه وهو عائد من الحمام البلدي قرب ساحة أسارك.

العاشرة وزخات مطر مارس وبعض الريح وغابات من الأمطار وأيور في زاوية قرب القسم الدراسي رفقة أربعة زملاء يتحدثون عن المواد الدراسية

والعروض والتمارين والواجبات وأمزجة الأساتذة.

أستاذة الفرنسية الأنيقة تسبب لهم الانتصاب داخل القسم فهي تظهر نصف ساقها، يكرهون القيام للعبورة في حصتها، نظرا للحالة الفيسيولوجية التي يكونون عليها، كأنها باريسية الصنع، مثيرة دوّمًا بشعرها الأشقر، عليها أن ترحمنا قال أحدهم، هذا اعتداء علينا نحن المساكين، ويضحكون، وها هي قادمة تضرب الأرض بكعبها العالي كراقصة فلامينكو إسبانية، يمثل أحدهم دور المغمى عليه بعد أن شم عطرها، ويدخلون القاعة في فرح عادي ينتظرون الدروس الروتينية عن الحقيقة والمجاز.

يوم الثلاثاء لا يمنح إحساسًا بالاختلاف، إنه محايد/ مسالم، وعادي، هكذا أيور في زمرة الطلبة بعيدًا عن الشاعر في داخله، قريبًا من الطالب، أسوار الثانوية مألوفة وحنونة أحيانًا، المراحيض المتسخة، الناظر بوقفته البوليسية كأنه حارس الأخلاق الأزلي، تتلبسه مسؤولياته فيحسب نفسه أمين الآداب العامة داخل مملكته.

ثلة هنا وثلة هناك، تكون ساحة الثانوية في حيوية وقت تبادل القاعات، تمر كريمة قرب قاعة الثانوية حيث يجلس ياسين، ترميه بغمزة عميقة وترحل مبتسمة رفقة صديقاتها، غمزة واحدة تشعل جسده وتترك له حرائق جلدية صعبة الإطفاء، وتقف قرب القاعة تحدث أيور عن قصيدته الأخيرة.

- أنت تكتب كأنك ستموت غدًا.

- كيف عرفت أنني أكتب؟

- تستكثر علينا التمتع بقصائدك.

- لا إنها ليست حتى قصائد، مجرد خواطر أكتبها وقت الفراغ.

- بل هي عصائر حزن تقطر بالجمال.

- لست حزينًا.

- ولست سعيدًا، على كل أبلغ سلامي لياسين وقبله لأجلي.

- مبلغ سلامك.

كان ياسين يراقبها من الداخل، عبر زجاج النافذة الشاحب وهو ينظر إليها نظرات سارحة، يلتهمها عن بعد، ويخط على دفتره خطوطًا عشوائية بالقلم الحبري الأزرق، دوائر وعلامات مبعثرة على ورقة فقدت شرعية الكتابة المنظمة كأنها ساعة حرب، قتلى من الطرفين ودماء زرقاء وقلوب مسهمة، شارد ذهنه، نظراته ضائعة يريد شيئًا لكنه لا يعلم بالضبط ماذا يريد، يفكر هل سيستمر في علاقته بها أم يقطع حبل الخطيئة ويرتكن للضمير.

ولكن نارًا مشتعلة، لا يمكن تجاهل نار مشتعلة تريبك، إما أن تطفئها أو تحرقك، أو ترميك بالشرر فتصيب به بعضًا من رغبتك.

يستيقظ أيمن على الساعة التاسعة تمامًا، كانت ليلته مرهونة لدى قبيلة الكوايبس، استيقظ مذعورًا وخائفًا كأنه سقط للتو من حفرة مظلمة، صعد مباشرة إلى السطح حيث غرفة الغسيل التي يلتقي فيها براضية، بعد أن سمعت خطواته ونقره على الباب كما يفعل دائمًا، نقرتين خفيفتين ثم نقرة واحدة أخرى، التحقت به.

حكى لها حلمه المزعج، كانت بطنه تنتفخ حتى تكاد تنفجر، فيستيقظ وهو يضع يده على بطنه يتحسسها، وكلما عاد للنوم يتكرر معه نفس الحلم، ينتفخ بطنه وينفجر، يكاد يموت من الفزع.

عانقته راضية وهي تبتم، كأنها تحضن ابناً لها، ولأول مرة يشعر بأنها أضخم منه بكثير، يشعر بأنها كانت من الممكن أن تكون أمه، وتذكر أمه وآيت جرار ورائحة الحناء ولكن أمه الشتوكية وعصبة رأسها المعقودة على جبينها، رائحة صدر راضية ليست كرائحة صدر أمه، فقد شم فيه الكثير من الشبق والقليل من الحنان، والآن هو بحاجة إلى الحنان لأنه خائف من كابوس متكرر قضى مضجعه.

قالت له:

- أنت رجل وتخاف من الأحلام؟

وبدأت تمدح رجولته كعادتها حتى جعلت منه أفحل من سنه، وارتمت على الأريكة اليتيم في غرفة الغسيل ، فهي لا تستقبله في غرفتها احترامًا لسي علال وليبيت الزوجية، وهذا هو منطقتها في تفسير ذلك.

هو كان بحاجة لأنثى في هيئة أم.

وهي كانت بحاجة لرجل، لأي رجل. ولكنها لا تريده طفلًا يخاف من الكوابيس الليلة، فهي قد تفقد شهيتها لجسده الصغير إن شعرت أنها تعامل طفلًا، لكنها تعرف من أين تأتي بالشغف، من سنين كبت طويلة تفعل فيها ما يريده الآخرون فقط، ترضي الآخرين، ها هي أخيرًا قد اقتنصت لنفسها شابًا من المكترين الذي يحضرهم سي علال لكراء البيت، تمارس معه مراهقتها المؤجلة، وتذبح معه ما تبقى لها من رغبة، تزوجت مبكرًا وفق التقاليد، وتعرف أن لسي علال مغامراته خارج السرير، فهو يبقى بعيدًا عنها لأيام طويلة دون أن تشاكسه رغبته بها، وبعده السريري يزداد تصدعًا مع الولادة والأولاد والمسؤوليات اليومية، حتى أصبحت مجرد محظية في بيت السيّد يداعبها أحيانًا كي يذكرها فقط أن في بيتها رجل، وكانت تشعر بالغبن وهي تداعب جسدها المكتنز في وحدتها الباردة، وكانت تطعم خيالها دائمًا بشباب الحي الذين تسمع عن مغامراتهم، وكانت تريد مغامرة محسوبة المقاس، وآمنة بالقدر الكافي.

غرفة الغسيل واسعة بها حمام بلدي وصالون صغير فيه تقضي راضية وأيمن حميمية اللقاء بعد أن تحكم إغلاق الباب الحديدي للسطح، تحسبًا لدخول الأولاد من المدرسة فابنها في السادسة عشر من عمره، ويفهم معنى الجنس.

تطعم أيمن بيديها بيضًا مسلوقًا وخبزًا بالعسل والسمن البلدي وتلقمه زيتونًا بين الفينة والأخرى، وحين تكتمل الطقوس تدس في جيبه أوراقا نقدية، تضعها في سرواله المنزوع قبل أن تناوله إياه.

ولأول مرة تسأله عن زبونات المحل، وكيف يعاملهن زوجها، تقول له إن جاراتها يأتينها بأخباره، ولكنها لا تهتم، هو أصلًا لا يشبع نهما؛ لذلك تفكر أنها في الأيام المقبلة ستدنس سريره بعد أن ترسل أبناءها لقضاء العطلة عند أختها في أكادير، هذا ما ستفعله بالضبط، ستدنس سرير الزوجية.

حقدتها على زوجها أصبح يخيف أيمن، والمتعة التي كانت تولد الطمأنينة أصبحت تبعث على القلق.

الخطيئة دائمًا يتبعها الندم، فصمتًا آل العشق المحرم، وأيمن ينزل من أعلى دركة دركة، ويدخل غرفته منهكًا، يتحسس سرواله ليأخذ منه ورقة نقدية من فئة ٢٠٠ درهم، يتذكر رشيد الذي ورطه في اللعبة وأدخله المجال: «الدومين» كما يسميه، لم يعد يستطيع أن يركز في دراسته ولا أن يعيش حياته، إنه يعيش على إيقاع رغباتها، جنونها وشهوتها التي لا تنتهي، كحفرة كلما أخذت منها تكبر، أصبح يضحى بالصباحات الدراسية من أجل المتعة فوق سطح البيت، مقابل بضع وجبات وملابس ونقود وهاتف نقال.

- إنني أبيع نفسي.

هو يعرف أنه يبيع نفسه، لكن يتخلص منها؟! وأي سلطة لجسدها عليه، إنه دهليز نتن، مقعر وبورته هي الأعضاء الجنسية، أجواء قاتمة الصابة المظلمة لمدخل البيت، إنه يشعر بالغرق، غرق في قاع العهر الذكوري، شيئًا فشيئًا

يتحول المنظر إلى لوحة شديدة السواد، ويفقد أيمن كينونته واستقلاله،  
ويصبح جسده في خدمة جسد برجوازي لسيدة مكتنزة الثروة وفقيرة  
الإشباع، تواطأت الظروف ضده، الحاجة، الغربة، الفقر، الرغبة، ولم يكن في  
حاجة للتفكير، كان منساقاً فقط، وشيئاً فشيئاً تحول جسده إلى ورقة متعبة،  
ملوثة بالاستغلال الطبقي، والفوضى والحقد، وملوثة بالخوف.

لا يمكنه أن يغادر قارة راضية بهذه السهولة، هي من ستقرر نهاية القصة، هي  
من ستحدد متى ترميه كقطعة غيار قديمة، وسيحدث هذا حين سيصبح  
أشد حزنًا وخوفًا، وحين ستتعب هي من محاولة استنهاض أشيائه المنكمشة  
والمرعوبة.

الجسد يخترن لغة الرغبة في أروقة كالعروق ويعمل وفقها، وتلك الرغبة حين  
تنكسر كأعواد يابسة بحكم القلق والرتابة، ينزع الجسد نحو التراجع والموت،  
الموت السريري الذي جعل راضية غاضبة، وتتفوه بالاحتقار والكلام الساقط  
من علو الفشل، سيصبح أيمن شيئاً فشيئاً عبدًا بامتياز، وستضيع ملامحه في  
سطور الاختناق.

أي ملعون سيكون أيمن وهو يحمل فشله السريري ويرحل دون ورقة بنكية  
في كرامته.

ككيس بلاستيكي مستعمل، كالواقى الذكري الذي يرميه في دورة المياه،  
سترميه راضية في دهاليز الإهانة، فلا فائدة من جسد متعب وحزين وبائس  
الغريزة.

في عالم المتع يكون الحزن خطيئة.

والمجد للجسد الشبق والأعضاء المحمومة.

عاد أيمن إذن لغرفته، ودخان السجائر بداخله، رمادي مرتبك، يسمع ضجيج دخول الطلبة إلى البيت.

إنه منتصف النهار، يلج ياسين المطبخ ليعد أكلة سريعة له ولأيور الذي ارتقى على فراشه ووضع وسادة فوق رأسه الذي يؤلمه منذ استيقظ فجر هذا اليوم، ولم يبرح مكانه إلا عندما ناداه صديقه لتناول الغذاء.

لكنه شعر بمغص في معدته بعد أن تناول لقيمات قليلة فقام إلى المغسل ليفرغ معدته، اصفرَّ لون وجهه وامتقع، غسله بالماء البارد وعاد لينام، قام ياسين بإعداد إبريق من الأعشاب الطبيعية المطهرة للمعدة والأمعاء، وضع فيه الشيح والزعتر وورقتي زيتون ومسحوق قشر الرمان وحبات حلبة، ناولها أيور الذي شربها وغط في نوم عميق لم يستيقظ منه إلا مساءً حين أدرك أنه تغيب عن الدرس لأول مرة، رغم مرضه شعر أن غيابه كارثة وراح يبحث في استعمال زمانه ليرى أي الحصص ضيع اليوم، لم تكن لديه سوى حصة تربية بدنية ونشاط في النادي الأدبي للثانوية.

عاد ياسين سريعًا بعد السادسة ليطمئن على صديقه، حتى أنه نسي مواعده مع كريمة التي استوقفته عند الباب الكبير فاعتذر لها لاستعجاله العودة للبيت، حين دخل وجد أيور يصلي الظهر والعصر جمعًا، وآثار النوم بادية عليه، انعكست عليه بالراحة والهدوء، قلَّ مغص المعدة والإسهال الحاد والانتفاخ المعوي، وقرَّرًا الخروج للتمشية على أرصفة تارودانت الضيقة.

خاف ياسين على صديقه خوفًا أبويًا قل مثيله؛ لذلك عانقه بشدة حين رآه واقفًا يعد الشاي في المطبخ قائلاً:

- الحمد لله على سلامتكم.

وضع قطع الكرواسان التي أحضرها لتناولها مع الشاي بعشبة شجرة مريم الذي أعده.

هي الأرواح تتآلف وأيور لا يمكن لأحد ألا يحبه، إنه يوحى دومًا بالهدوء والطيبة، شكله، قصره، ملابسه العادية، مشيته، وحتى ابتسامته، أو ربما هي ابتسامته بالضبط ما يجعله محط فرح، إنه يبتسم بعينيه البنيتين كأنه الوارث الشرعي للصمت، وأكثر حديثه بعينيه وحواجبه المستقيمة.

لكنه مسجل رسميًا في لائحة الحزاني، لو انتخبه شعب المتسولين ذوي العاهات العاطفية المستديمة لحول بلدتهم إلى جنة من الشعر والروايات الدامعة، وكل الأشجار ستعلق لافتات البوح الشفيف بأن الوطن يبكي، يبكي بحرقة، يبكي الماضي والحاضر، أما المستقبل فيبدو من قبيلة الضباب المسموم المعلق في الفراغ، سيمطر موتًا على شعب الأموات الذين لا يجدون لحدًا يأويهم، كما لا يجدون وطنًا يحتويهم.

أيمن أيضًا مسجل هذه الليلة بسجل المفقودين من ذوي الأعطاب التاريخية في الذات، حين تُضغط النفس البشرية تنتج أكوامًا من الحزن، يراق على أرصفة المدينة ويكفي لسقي أشجار الليمون الكاذب مدة عقد من الحزن، ما أجمل الليل، إنه يجعل الحزن أسهل، حين يتعاطف السواد مع السواد،

والصمت يحضن الموج، والكآبة ترتدي فستان عرس وتموت بين الزغاريد،  
إنه فرح الموت ورائحة العنبر المفقود في المقابر.

لا بحر في تارودانت ليغسل بمائه المالح قلوب منكوبي الوجود، وبأعني  
الجسد، ماء البحر لا يستطيع أن يعالج جروح القلب الغائرة، لا يستطيع قتل  
الدود الأرضي الذي تسلل عبر الكفن المترب المليء بالطمي والحنوط.

حين تحزن تضعف بالقدر الكافي الذي يجعلك تنتقي من الذاكرة أسوأ  
اللحظات لتعينك على تخفيف حدة حزنك، ليس تمامًا، إنها الذاكرة المستعادة  
إبان حرب الحلول العاطفي، ذكرى متوارية منذ زمن قرب الغدة الباقية للعين،  
هناك ترقبه منذ آلاف السنين العاطفية لتنفلت ذات حزن بالغ الترف كحزن  
أيمن وهو يحمل جسده بين أضلعه اليتيمة، يحتاج أبًا الآن، يحتاج أن  
يخرجه من بين القبور المتراسة في قرية آيت جرار بتزنيت، يحتاج سورًا  
قويًا يتكئ عليه من شدة الفقد، لماذا يختار الوقت اللحظات التي يكون فيها  
الجسد عرضة للتلف ليجتهد في التذكر.

بدت المدينة لأيمن منزوعة الشهوة، فاضلة وفاسدة، شجرة الكستناء المعمرة  
ترفع سريدة بالية من الصوف، تسرب صوفها خيطة خيطة، كما يتسرب الفرح  
من قلب أيمن هذه الأثناء، يتسرب عبر مجاري التاريخ.

المدينة ترتدي دومًا مقاسات أكبر من فهم الإنسان وتترك له مجال تطريز  
حقيقة تناسب حاجته البيولوجية للسلطة، المدينة سمكة كبيرة تلتهم الماء  
والأسماك الصغيرة الملونة كقلوب الأطفال؛ لذلك تجدها مبتهجة بأضواء

متنوعة، كلما قتلت روحًا بدت أجمل، تحاول أن تطحن روح أيمن الملطخة  
بفعل محرم، روحًا شريفة كورقة تين في خريف الانتكاسات النفسية.

تذكر والده، الرجل الأربعيني القوي بساعديه المعرورقتين من شدة العمل  
بالحقل، ضربات الفأس على الأرض، قوة اليقين وعظمة الشرف، ورحيل مبكر  
بأزمة نفسية من سوء استعمال مبيد للحشرات الضارة بحقل الطماطم،  
ومات الوالد، بدا أيمن قويًا كابن أوسط، لكن الذكرى تحجرت في الداخل،  
حتى بائع التين يذكره بالصبار المحيط بالمقبرة، يسيل كعصير الفاكهة كدم  
الموتى المتبقي في العروق، وكان كلما همَّ البائع بقطع الثمرة يتمنى أن يترفق  
السكين بها.

الموت، إننا لا نبكي الأموات بل نبكي أنفسنا، قيمتنا الوجودية بعدهم.

والأشياء الأخرى التي تزعجنا أن نبقى وحيدين في حياة غابة لا تقبل إلا  
الاجتماع، أن نبقى فيها كديكورات الصالة المتوارثة عبر الأجيال التي لا ينتبه  
لها أحد، كثوب الموبرة القوي الذي طاله مقص الحفيدة التي درست الخياطة  
في المعاهد ووجدت فيه فرصة للتجديد دون أن تعلم أنها مجرد فتاة طائشة  
من جيل طائش يعتقد أن الحياة تدور حوله فقط دون اعتبار للتاريخ ولا  
للماضي ولا للمستقبل، كمفتاح المدينة القديمة الذي فقد أبوابه، ما قيمة  
مفتاح في غياب الباب؟ كذلك نحن حين نكون وحيدين يرافقنا بعض ظلنا  
فقط.

كان أيمن وحيدًا، دون نقط مرجعية يهتدي بها، دون صديق، دون لذة تنتشله  
من غياهب التأمل الجارف وهو يحوم حول النافورة كبعوضة تحوم حول

النار، والبئر السحيقة التي رمى فيها جسده الفتى، بئر راضية التي بدت قبل الآن البئر الوحيدة التي لا ينضب ماؤها في صحراء قاحلة.

الحياة قاحلة كصحراء الجنوب في عيني أيمن المتعبتين، ملؤها العطش والشمس والرمال الحارقة والبرد القارس، والأفاعي السامة الجائعة والسحالي البنية اليابسة على عمودها الفقري، لا حياة، لا شجر سوى أحراش حزينة نصف ميتة، كثبان ضخمة متحركة غادرة تخنق وتقتل، تضيع خرائط المكان وتتوغل بك في الحيرة وتسير بك عكس اتجاه السواحل، في الحياة كل شيء يعاديك حتى الوقت يسير ببطء حين تحتاج سرعته ويسرع حين تتأخر عن الركب، علامة طريق واحدة تقودك تسمى الأبوة، عطف الأب ليس سراً بصحراء، ليس واحة تستريح فيها، إنها مدينة تولد فيها، بنافورات كثيرة وحدائق خضراء ومقاهي ومسارح وقاعات سينما ومحلات تجارية ومساح عمومية ومدارس ومستوصفات، العطف هو تلك النقط التي تعجم الحروف الحزينة لتوضح أصل الفرح فيها.

وراح يحدث نفسه: «سامحني والدي، أنا لست رجلاً بما فيه الكفاية، فليرحمك الله ولترقد بسلام في قبرك، أحتاجك اليوم، أحتاجك اليوم أكثر».

ترقد دموع مترفة الحضور بمقلتيه، ولكنه يكابر، عليه أن يكابر وهو وحيد تحت الضوء الخافت للمصباح العمومي، يضغط على شفتيه المرتعشة ويبلع غصة ثقيلة وحادة، ويمسح بعنف ماء العين عن خدّه، هو لن يبكي، كل نباتات الحديقة تقول إنه لا يبكي، وتخفي الخبر عن سلطان المدينة، فالحرج المضاعف للقلوب الضعيفة يكون أكبر حين تعلم أن شاباً في العشرين يبكي

نفسه في عمق الليل وعمق الألم، وعمق الاحتياج لأناس تحت التراب، ما أقسى أن ترغب بقلب مخفي بإحكام في قبر بأقصى الزمن.

عاد أيمن متناقل الخطى للبيت وارتمى على فراشه ونام من شدة التعب، تعب داخلي؛ حيث لا رغبة له في الكلام ولا التفكير ولا أي شيء، استسلم للفراش دون أن يغير ملابسه ودون أن يزيل حذاءه، نام على نفس الوضعية حتى الصباح.

يوم جديد لنفس العالم، لنفس الروتين، الدراسة والبيت والجولات المسائية بمسحتها الحزينة، ومرت أيام عادية جدًّا في نظر الجميع، لكن أيام المراهقين والشباب ليست عادية، ياسين الذي كان مراهقًا لطيفًا، لم يعد يستطيع كبت جماح الأيام الساخنة؛ لأن الجسد، الجسد، الجسد يفور ويثور كشعب يذوق طعم الحرية. انفجرت فيه عيون الجنس قبل الحب، الوجه تملؤه بثور حب الشباب ويكتسي حلة جديدة كل يوم، شعر اللحية ينتشر في مناطق جديدة من الوجه ويبعث على الفخر بالرجولة، الوجه فقد ملمسه الطفولي، القلب أيضًا، ولم يعد ينظر في عينيها فقط، بل ينظر إلى كل شيء فيها، التاسعة عشر من العمر حارقة جدًّا وطائشة، ما زالت تجر خلفها طفولة مهترئة ومراهقة صعبة، صعبة جدًّا، ضغط الفقر والحاجة والجسد والجنس والقلب والعناق والأحلام والعلاقات. والصدقة لا تعني شيئًا غير التعاون في الحصول على لذة. البنت أي بنت مجرد لعبة، معظمهم يفكر بهذه الطريقة، حتى ياسين يفكر بكريمة هكذا على ما يبدو، لكن الأمر تغير تمامًا، خليط غير مجد من المشاعر التي لا رأي لها أمام الرغبة وكلمة الحب لا تخرج من القلب بقدر ما تسيل من الجسد.

وكلمات الحب استهلكت حتى أصبحت سلعة رائجة بين الطلبة؛ كأريد، أحبك لدرجة الجنون، أصبتيني بالجنون، ارحمي قلبي الضعيف ...

كان يفكر فيها بالتباس شديد، فمرة يلبسها ثوب الأميرة ويقرأ لها شعر الفرسان، ومرة يعريها في نزق ويمد يده لجسدها، ولم تكن هي إلا صورة

مفصلة لفتاة في ذهنه، ولكنها كانت المرجع الواقعي لأحلامه، وكذلك لاحتلاماته. سألته ذات يوم في رسالة هاتفية، كيف يفكر فيها؟ وكان شيطانه مستيقظًا حين قرر أن يكون طائشًا هذه المرة، فقال لها إنه نائم ولم يبرح فراشه بسبب البرد القارس في المدينة، وأنه تحت غطاءه الصوفي المعروف بالحمل -الحمل يصنع يدويًا في بعض القرى المغربية من صوف الغنم ووبر الماعز- قال أيضًا أنه يدفئ يديه بين رجليه محتضنا أشياءه، أخبرها ذلك بشيء من النشوة والطيش والفرح، ولكنه أضاف أنها سيدة أفكاره حين يتعلق الأمر بالحب الطاهر أيضًا.. واضح أنه يهلوس وأنه يعيش الرغبة والمراهقة، كم مرة حاولت تقبيله ورفض؟ وكم مرة شعر بأنها ترغب به وأنها خائفة؟ وكم مرة عاشا لحظات خارج الحياء المعتاد؟ لكنه لم يفهم كيف تجرأ وأرسل لها رسالة تتضمن كلمة أشياءه؟ وكيف لم تجبه مدة يومين بسبب الخجل؟ ولكن حين راسلته، أعاد الكرة وقال لها:

- أريد أن أضمك إلى صدري وأن أشعر بك ترتجفين بين ذراعي...

أصبح الجنس معطى لغويًا منفصلاً عن الواقع، بدخول عالم الاتصالات ومواقع التواصل.

بدأت فترة الامتحانات العصبية، شهر يونيو دائمًا مرهق، الأعصاب مشدودة والأدمغة منتفخة من كثرة الإعداد والدرس والتخزين في الذاكرة، والضغط يولد الانفجار.

استمرت علاقة ياسين بكريمة طوال السنة، يخرجان مرات في الأسبوع بعد الثانوية، يتجولان حول السور حتى المساء، يجلسان على حافته قرب باب

أولاد بنونة هناك في الظلمة الخفيفة لما بعد غروب الشمس، استحوذت عليه كريمة بكل حضورها الأنيق والثائر، رغم خجلها الفطري كانت تعيش معه بكل كيانها، صحيح أنها استسلمت لرغبة أختها الكبرى في وضع الحجاب لكنه كان مجرد غطاء للرأس زادها جمالاً، خصوصاً حين تختار ألواناً مضادة للون بشرتها الفاتح، ياسين رغم كل احتياطاته السابقة انبهر بها حد الجنون، للجسد منطلق آخر، وهي راهنت على ذلك منذ البداية، جعلته يذوب حباً وهياماً وعشقا، لا يمكنك مقاومة أنثى في بداية ثورتها العشقية، فكلها نعرات جسدية أينما وضعت يديك تشعرها بالتوتر والنشوة، فالاكتشافات الأولى للجسد لا تنسى، وتظل مطبوعة في القلب والذاكرة وتبقى كسائقي الرغبة المثيرة في كل لحظة تذكروا لحظة لقاء.

وياسين أيضاً كان يكتشف نفسه من خلالها، كأنها أداة للتعرف على جسده وكم كان يخترن من فيلم في يديه وشفتيه، وتحت كل شعرة جديدة من شعر جسده، ما زال يكبر ويكبر معه عالمه.

خفت لقاءاتهما بسبب الامتحانات لكنهما ظلّا على تواصل عبر الهاتف والتطبيقات الاجتماعية الأخرى خصوصا الفيسبوك، هاتف ياسين اشتراه بثمن مناسب من أيمن الذي حصل على هاتف جديد من راضية أو من غيرها، هاتف أيور وحده بقي تقليدياً يستقبل المكالمات والرسائل فقط.

- مساء الخير أيور.

- مساء النور ياسين. لقد حضرت وجبة طعام ، تفضل بالجلوس.

- آه جيد، أنا جائع جداً.

- تفضل كل إذن. لا أستطيع البقاء للدراسة في هذه الغرفة التي تزكم الأنوف، الجو حارٌّ جدًّا، أفضلُّ أن أسهر خارجًا تحت أي مصباح عمومي لأدرس، كما أن الجو الجارجي يكون معتدلًا، على الأقل يسمح بالتركيز قليلًا على هذه الأوراق، دروس التاريخ طويلة جدًّا، واقتصاديات الدول الكبرى متشابهة ولكنها متميزة في جوهرها، فاقتصاد ألمانيا ليس هو اقتصاد فرنسا، كما أن كثرة الخرائط تتطلب الكثير من الرسم والتوطين، الأمر يحتاج وقتًا ولم يعد لدينا وقت كثير.

- لا تقلق، أنت تستعد طوال السنة تحتاج فقط إعادة استذكار ما درسته.

- ربما أخطأت في توجيهي للشعبة الأدبية، لو كنت مثلك فقط، أنكب على تمارين الرياضيات والفيزياء..

- الأمر ليس كما تتصوره، الدراسة عمومًا تحتاج تضحية كبيرة، للحصول على تميز مشرف، أما البكالوريا فستحصل عليها على كل حال.

فتح ياسين هاتفه، وبدأ في تصفح رسائله وترك أيور مسترسلًا في حديثه ولم ينتبه إليه حين غادر البيت مودعًا، وجد رسائل كريمة في علبته على الواتساب، قلوب حمراء كثيرة وجمل حب وتحرشات شقية،

- مساء الحب، اشتقت إليك.. أخذتك مني الكتب، لن تفلح بدوني..

- مساؤك قُبِل، ماذا تفعلين؟

- لا شيء، فقط أعد العشاء، وأنت؟

- أنا مع أيور بالبيت.

لكنه انتبه إلى أن أيور قد خرج في الوقت الذي كان يطالع فيه رسائله،

- لكنه خرج الآن، سألحق به بعد قليل. سأراسلك ليلاً، إلى اللقاء.

- سأنتظرك لا تنم دون أن تكلمني.

بقي في البيت مدة كافية أعد العشاء وتركه على المائدة الصغيرة بغرفتهما، دخل عند أيمن ليسلم عليه، كان يدخن في غرفته، جعل منها مدخنة واسعة، لفيفات حشيش وأعقاب سجائر مرمية في الغرفة على الفراش وفي المنفضة، هاله الأمر فبقي مندهشاً من حالة أيمن الذي فقد كل حس بالنظافة.

طلب منه أن يسمح له بتنظيف الغرفة أو أن يساعده على ذلك، لكن أيمن لم يجبه، جمع ياسين أعقاب السجائر ومسح الطاولة، وعلق الملابس على المشاجب وراء الباب، وجلس مقابل أيمن:

- هل تريد كوباً من الشاي؟

- نعم، شكرًا

- لا داع للشكر نحن أصدقاء، هل أنهيت امتحانات الجامعة؟

- نعم لكني لم أفلح في شيء، تنتظرنى الدروة الاستدراكية في كل المواد.

- الله المعين. سأخرج الآن، لدينا امتحانات كثيرة هذا الأسبوع.

- اعتن بنفسك وحضّر جيدًا فأنت تستحق النجاح.

حالة أيمن لا تطمئن، إنه يائس، لا يستطيع أن يركز في شيء، وهو منذ فترة على هذه الحال، أصبحت لديه لائحة من ثلاث برجوازيات عدا راضية، تلك حقيقة أيمن، لا يمكن إخفاؤها أو تجنبها فهي حياته، هو لا يخبر أحدًا؛ لأن الحقيقة لا تصلح دومًا للعرض الجماهيري، فأن يكون هو بالوحدة التي يريد وباختياراته الخاصة جائز، ولكن مشاركة الآخرين ليس إنسانيًا، الإنسان في حضور الآخر مقترنٌ به، عاشقٌ ومحبٌ ومحترمٌ على الأقل؛ لذلك يصمت ويعيش عالمه وحده دون إحراج الآخرين وإجبارهم على تقبله كما هو، فهم سيبدلون جهدًا على الأقل في تجنبه ومناقضته إن لم يجرءوا على معارضته.

علاقاته بالنساء الكبيرات جعلته ينضج كأنه رجل في الأربعين من عمره، ولكن شروده يزداد يومًا بعد يوم، كل ما يراه أمام ناظريه هو البيدر المهجور في قرية بايت جرار، تتراعى له بقايا التبن التي تحملها الرياح بعيدًا، تنقلها من مكان إلى آخر، يراقب ذلك وهو جالس على صخرة مسطحة قرب البيدر، كانت تستعمل لتوضع عليها صينية الشاي الضرورية أثناء عملية درس القمح التي توافق بداية الصيف، يظل يتابع قش التبن وهو محمول في الهواء، يصعد شيئًا فشيئًا إلى أعلى، ليلامس السماء، وهو يراقبه وينقطع عن اللحظة والآن، ينفصل عن محيطه شيئًا فشيئًا حتى يلامس السماء الصافية، والتبن المعلق على أشجار الأركان الصلبة.

علاقته براضية ميكانيكية، هكذا يجب أن تكون في أصلها، إنها آمنة بما فيه الكفاية لتستمر، صحيح أن راضية عرفتته على زوجة أستاذ الرياضيات وهي تعلم أنه يقابلها مرات كل أسبوع، ولكن هي صديقتها وتوفر لها السرية التامة

حين تريد أن تغير طعم أيمن بطعم شاب آخر من المدينة؛ لذلك تسمح له بالعبث بعيدًا عنها، نسوة من صنف المعتقلات الجنسية هربن للتو من بيوتهن الباردة، يبحثن عن دفء آخر العمر في أجساد بدأت تنضج على إيقاع الفقر والرغبة والحاجة.

لم يلجأ للزذيلة؟

أيمن يعلم جيدًا شغفهن بالجنس، لكنه يظل يطرح السؤال على نفسه، وأحيانًا عليهن، ويكون الجواب دائمًا غياب الزوج عن السرير أو حضوره غير الكافي، هكذا يبررن تضامنهن في شبكات مساعدة جنسية كأنها حفلات جمع التبرعات العاطفية، عرف أيمن سر المهنة وتخلص من خوفه وضعفه واحتياجه القديم لصدر كصدر أمه، وجعل راضية مدمنة عليه، مدمنة حد المرض، كأنه عرف أكوادها السرية للنشوة، ما زالت تمتصه كأنه رحيق عسل في قوارير الذهب.

ها هو ذا أيمن بلائحة لا بأس بها، راضية وزوجة أستاذ الرياضيات، زوجة الفلاح صاحب ضيعة البرتقال ومحاضن الدجاج، هذه الأخيرة التي عرفها بأغرب طريقة، فقد وقفت أمام محل الحاج علال، وأشارت إلى أيمن بأصبعها من وراء زجاج السيارة المعتم، كانت ترتدي عباية خليجية ونظارات سوداء عريضة، طلبت منه رقمه لتتصل به، ومن شدة انبهاره لم يصدق أنها ستفعل، لكنها اتصلت به في المساء وقالت له إنها هي من سيتصل به دائمًا ومنعته من أن يبادر هو بذلك تحت أي ظرف كان.

اتصلت به، أعلنت إعجابها به، ليس به بل بجسده، قالت له إن الحاج يذهب في رحلات لمراكش؛ لأن لديه محاضن أخرى للبيض وإنتاج صغار الدجاج، وأنها ستتصل به في الوقت المناسب لتأخذه معها إلى هناك، على أساس أنه عامل في الضيعة، وهذا ما حدث فعلاً، أرسلت سائلاً ليحضره ذات مساء، وكانت قد أعدت العدة وقدت قميصه من كل جانب.

بقدر ما كان يملك من حاسة سادسة لشم الرغبات بين أفخاذ النساء بقدر ما كانت لهن ملكة التعرف على الرجل المناسب للمهمات السرية، في هذا العالم: «الدومين».

بالمدينة تارودانت، في صغرها نقمة، تتأرجح على ميزان الستر والفضح، ولكن الضيعات المحيطة بها تمتهن كل أساليب التستر، الضيعة واسعة كبحر لجي، والفيلا تقع في أقصى اليمين بعيداً عن رائحة الاسطبلات والمحاضن.

دخلها أيمن وفي عقله ترن زغاريد حزينة، عقد بسرعة مقارنات بين حياته وحياتها، كل الرخام في المداخل وعلى السلالم، دربزين الألومينيوم اللامع، السجادات والزرابي التركبية، التحف اليدوية من مدن مختلفة، تمثال متوسط لأبي الهول المصري، حاضر بكل فرعونيته، كل هذا وسيدة جائعة.

مع الوقت استطاع أيمن أن يغيب عقله، ألا يفكر أبداً، منساق كمعزاة نحو هاوية سحيقة، بدأ ينسحب من شخصيته ليدخل في الفراغ، الدومين لا يسمح لك بالتفكير فيه من داخله، الدومين عالم خاص جداً، أنت جزء منه وبعض في كله، جشطلت (اندماج حسي مدرك)،

أنفاس أيمن تتلوث بالحشيش يومًا بعد يوم، تجربة الانتشاء الأولى كانت  
عادية بقدر كبير من اللذة، ألد من بطن أي أنثى قد يصادفها يومًا، هل  
سيتحمل كل هذا الانسحاب من شخصيته دون مساعدة خارجية؟ مستحيل،  
كان يتأرجح بين الدخول والعودة، وكانت سيجارة واحدة كافية بأن تجعله  
يلتهم راضية تلك الصباحية بشكل وحشي طمأنها على قوته وحضوره.  
ولكن الرياح أمامه دائمًا تحمل تبنًا عليه أن يراقبه وهو يطير في الهواء.

## -١٤-

بيت الطلبة لم يعد يعاني نقصًا في المؤونة، راضية إن رضيت ترسل بين الحين والآخر أطباقًا من الثريد، والمسمن والكثير من الفطائر، عدا أنها تضغط على سي علال ليصبر على دفع ثمن الكراء، وهذا جعل الطلبة ينعمون ببيت مريح أكثر من أي وقت مضى.

الفئران الصغيرة تأكل من جسد أيمن، تتناول مع كل حصة جزءًا من دمه، من شخصه، من كرامته، هو لم يفكر في ذلك؛ لأنه وسط الدومين، ونظام الأشياء هنا لا يقبل الحنين ولا الضجر ولا الحزن السخيف قاتل المتعة، ولا أسئلة الحرام العادية، منساق فقط دون طرح للأسئلة العقيمة.

كان كريمًا مع الجميع، خصوصًا ياسين وأيور، هو اعتاد عليهما في هذا البيت، هناك روابط غير أسرية تنشأ بين الطلبة، تتقوى مع الوقت حتى يصبح الواحد منهم أخًا للآخر، يتقوى به ضد الحياة القاتمة لشباب في غربة. هذه الروابط تظهر حين يختفي أحدهم وقتًا أطول من المعتاد، أو حين يستعد أحدهم للرحيل بعد إنهاء دراسته.

التحق ياسين بأيور في الحديقة العمومية لكنه لم يجده هناك، فعاد للبيت لينتظر عودته.

فضّل أيور الذهاب للحقول المجاورة لتارودانت، حيث أشجار الزيتون خصوصًا، ليراجع دروسه تحت ضلالها بعيدًا عن حر يونيو المبكر سيبقى

هناك ساعات قليلة قبل أن تغرب الشمس ليعود للمدينة للبحث عن عمود كهرباء يستضيء به ليلاً.

تحيط بتارودانت حقول أشجار الزيتون، أشجار معمرة قديمة تتخللها سواقي شيدت في المرحلة الاستعمارية.. يرتاد أيور هذه الحقول أحياناً، هي مرعى للأغنام ومرتع للصبية ومكان للنزهات العائلية، لكن النشاط الأهم هو لقاء العشاق من الشباب والشابات، يمكن التمييز بين تلك العلاقات فالثنائيات تختلف في نوع العلاقة وأهدافها، هناك من يبدو منذ الوهلة الأولى غريباً عن المكان تمسك به صديقه الخائفة التي لا بد أنها في الإعدادي وهو في الثانوي، يجلسان قرب جذع شجرة عادية، يتبادلان الكلام فقط وبعض اللمسات والابتسامات المرتبكة، يتناولان البسكويت ويشربان الرايب جميلة، من شدة أناقة الشاب الذي أخذه الفرح وهو مع حبيبته يبحث عن مكان يرمي فيه العلب الفارغة دون أن يفسد منظر المكان، يكتفيان بالكلام، إنهما رائعان رومنسيان، طرَّق الحب قلوبهما للتو.. ربما.. يرحلان قبل غروب الشمس.

وقد تجد ثنائياً آخر يبحث عن شجرة معينة اعتاداً الجلوس إليها، أخفياً بين جذوعها بعض قطع الكارتون، ليستويًا عليه.. تجلس الفتاة أولاً معتدلة ويهوي الشاب قربها متكئاً على منكبيه قربها، هذا النوع عادة يحمل رواية بين يديه أو ديوان شعر نزارى بالضرورة، بعد ألفة يقتربان من بعضهما، يمسك يدها ويقبلها وهي تتمتع وتنظر حولها وتعاتبه.. لا يغادران مع غروب الشمس بل بعده بقليل، حين يغض ضوء النهار الطرف عنهما يقطفان بعض القبل ويرحلان، لا بد أنهما من الشعبة الأدبية.

النوع الثالث يأتي قبل غروب الشمس بساعة تقريبًا، الشاب يبدو واثقًا من نفسه يمسك يدها طول الطريق المؤدي إلى سيدي بورجا، يختار الحقل المزروع بالذرة لينزرع فيه معها، من حسن حظه أن فلاح الحقل غير موجود، تأخذ الفتاة من حقيبتها بعض السندويتشات وقنينات البيبسي كولا وتناوله في سعادة ما أحضرته من بيتها من أجله، نوع خاص من الفتيات، الفتاة التي تحضر كل شيء منزليًا هي شبه ربة بيت، تبدو سخية، هو ضاحك فرح يعاملها بلطف كبير، إنهما مستعدان للبقاء هناك إلى ما بعد غروب الشمس، يأكلان، يشربان، ينخرطان في جمل جسدية عميقة القبل، وقد يتخفان من بعض الملابس، كأن يتخفف هو من سروال الجينز ويبقى في شورط ويتركها تداعب شعر أطرافه.. ويستمران في الجمل العاشقة لسيناريو ممسرح منذ عرفًا معنى الجسد، يمكنان مدة ثم يرحلان لكن بهدوء أكبر دون ضجيج وكفيه على دراجته، لا يحضنها ولا تمسك به فقط يسيران نحو المدينة..

النوع الرابع من الثنائيات يحفظ سوره عن ظهر قلب.. هذا الثنائي يأتي مع غروب الشمس، يختار شجرة رباعية الجذوع، يضع دراجته الهوائية بين جذعين ويضع فوقها الجاكت وكيس المأكولات كأنه يصنع خيمة، يأخذ سيجارته ينفخ فيها ويشرب من قنينة المشروب الغازي المعدلة مزاجيًا، هي خليط من المشروبات، هي تتوسد فخذه أو بطنه وهي مستلقية على ظهرها وبين فينة وأخرى يطعمها قبلة طويلة تكاد تخنقها، يحل الظلام فينطلق الجسدان في حفلة شهوة مستمرة حتى ما بعد العاشرة ليلاً... مخلفان وراءهما أوقية ذكرية مستعملة، أن تبقى في الحقل إلى وقت متأخر يستدعي منك نوعًا من الحماية كأن تكون رفقة ثنائيات أخرى من نفس النوع أو أن تكون عالمًا بخريطة الحقول والممرات والأشجار وأن تحمل معك

سلاحًا خفيًا وبالطبع لا يجب أن تخاف الثعابين والحشرات وحتى العقارب...

الشهوة تمارس حقها في الهوامش، في وطن يصعب فيه الجهر بالقبل، وتمنع فيه المرأة من حقها في التعبير عن الحب، وطن لا يؤسس لشيء غير انتخابات مزورة تجعله ظاهرًا من الساعين للديمقراطية، لا دستور للحب ولا مدونة عشق.

غاب أيور عن الحقل وعن المدينة والتجأ لمكان منزو قرب باب تارغونت في اتجاه ضاحية بوتاريالت، هناك بقي يتجول وحده حتى منتصف الليل، رغم خطورة المكان وانتشار تجار الحشيش بالتقسيط، وتجار ماء الحياة، الظلام دامس، لا يسمع غير خطواته وكأنه وحده يسير على هذه الأرض، تهتز مدارات تفكيره ويجمع شتات تعبته وإرهاقه، يجمع شتات حياته ويرتب شريط ذكرياته، يحتاج أيور الكثير من الوقت وحده، ككل الشعراء، الانعزال ضرورة حياتية بالنسبة له، فيه يبني عش صورته وفيه تفرخ لغته، لكن الانعزال يبقى غامضًا ومؤلمًا، اقترب من قنطرة واد سوس ثم استدار وعاد أدراجه، شعر بنسيم عليل لمنتصف الليل يداعب جسمه، وراح يفكر في كل شيء، لكن بترتيب مريح، لا تتزاحم الأفكار في ذهنه بل تتراقص في رشاقة أمامه، وراح يكتب في الهواء قصائد من نسيم، تلك الدودة الحزينة تمشي بخفة على ورقة التوت اليابسة مخافة أن تكسرها أو أن تزعج الجيران، ولكن حزنها ثقيل لا تقوى على حمله، والورقة هشة حد الموت، والغابة كبيرة لا تعترف بمشاعر دودة متشردة تحمل قفة يأس بين جنببيها؛ لذلك قرّرت أن تنكمش وتلتف حول نفسها ثلاث لفات وتنتظر الصياد الطائش أو الجندي

ببرود أو جيش سليمان ليخلصها من حزنها، يبقى حزن أيور معلقاً في الفراغ  
لا أصل له ولا عنوان، كأنه رواية كتبها جندي مجهول أسقطته طائرة ورقية  
في عمق واد يحترق، لم تعد لديه أعصاب، يملك فقط تلك العروق التي تشبه  
خطوط ورقة توت يابسة مر عليها جرار ضخم كالمشاعر، في حديقة بيت  
مهجور في مدينة الحرب الأهلية، قوي في ضعفه وصمته وسهوه، يرتوي من  
الشمس ويشرب بقية الأمس.

هذه اللحظات الوجودية تجعل من أيور شخصاً آخر.

ضبط هاتفه على إعدادات تسجيل الصوت وراح يهذي:

متعب أنا كقطار بخاري

يستعد للفظ آخر زفرة فحم

وليستقر في المحطة القديمة

خارج بلجراد

حيث كان الثلج يغطي أموات الحرب.

لتصدأ جنباته وتنمو بين أقراصه الحشائش

يلعب فيه أطفال المدارس في حصة التاريخ

لتقول لهم المعلمة

صاحبة النظارات السميقة

المدججة بالمناهج والثقافات.

أني كنت هنا

وأني هويت ذات يوم وأويت لركن قصي من العالم

كي أرتاح قرب الثلج

وقرب ذكريات الرصاص والفحم.

متعب أنا

كصديق يحمل كرة سيزيفية الثقل

عمرّ وهو يحارب الصمت.

حتى أهلكته الحروف

ها هو يبوح

بين يدي آخر الفرسان في قلبه

ها هو كرؤيا يتجلى أمامه

كما يتجلى المعنى

وها هو يلفظ آخر آلامه بين يديه

وهو يسقط صريع الكلام

ويسفك ما تبقى من دماء الذكرى

ها هو يموت ليحيا

متعب أنا

كطبشورة منسية في مكتبة المدرسة

في العطلة الصيفية

تحجرت على حكاياها واشتاقت لشغب الضجيج

وتمنت لو كتبت قبلاً كل أشعار الفرح

لو شرحت أكثر

لو صارت غباراً

متعب أنا

ضعني هناك

وعد إلى السطر

سأقوم بدوري جيداً

سأقبع هناك حتى تنهي كل قوافيك

ولن أسقط إلا تعثرًا بقارئة حزينة

تهوى النقط السوداء.

سأحرس الحزن كي لا يشبح

أو يشيخ.

سأجعله يحتفل كل يوم بجرح جديد.

متعب أنا

يا حبيبي

كثدي أنهكه الورم

كتبن باسه الشرر

فاتقد ما به من ألم.

أيها الفلاح الذي فقد أرضه

أنا مثلك مثخن بالوهن

وعتلتني وفأسي فقدنا شهية الحرث

وكفزاعتك القديمة

المنزوعة الهيكل

أرتمي قرب الزريبة

وأنتظر مرور الطيور لتنتقم من فزعي.

أنا هنا مثلك

أخذت الوقت وجمدته بين يدي

وأقف وإياه كالصنم.

أنا متعب

كبقايا الزيت على جنبات القناني

كسرّ تقادم في دولا ب الذاكرة.

مثقلٌ كسلال معصرة الزيتون

التي تنتظر أن تفرغ ما في جوفها من حزن

قطرة قطرة

وحرقة حرقة.

أنزوي قرب كانون الجمر

وأدفن الصمت في الرماد

وأشتهي البقاء وحدي

أناجي أنفاس حنيني

وهوسي بتركيب علامات الضجر على قصاصات الأيام.

متعب أنا

كبرسيم أخضر ظل في بقعة الشمس

لا هو يابس النهاية

ولا هو طري البداية.

متعب أنا

لو تعرفين حقيقتي.

معلق إلى السماء

كخيط عنكبوت معلق إلى الثريا.

الثريا نحاسية يعلوها الصدا الأخضر

هي أيضا حزينة

معلقة منذ القرن الثامن عشر في هذا القصر

المهندس على النمط الفيكتوري التعيس.

قديم الطراز تسكنه الأشباح.

وتسكنه الحكايا والقبل الباكية.

وربما تسكنه أرواح الشعراء الحزاني

كاتبي القصائد الدامية.

كبودلير

كانتصار دوليب

كالسِّيَاب يسمع طرق الريح.

كم أنا متعب، لقد كنت طوال اليوم أبيع نفسي في سوق الأسئلة المستقاة من  
نافورة الألم.

كم أنا متعب وأنا أجول السوق حاملاً نفسي فوق نفسي، وأجر ذاكرة مهجورة  
في رحم التاريخ.

على الجدار الداخلي لقلبي أكتب لحن الموت وأردد أغنيات الصداع النصفي  
الذي يؤرقني منذ قرن أو يزيد.

أريد أن أبيع أيضاً أرقى المزمّن المعثّق المخثّر داخل جمجمتي،

لا أحد يشتري أشيائي، حواملي وأسندتي، روتيني الساكت على عذاباتي  
ويومياتي الهجينة التي لا تعرفني

أنا متعب حبيبتني

ضميني إليك أشقى من أمراض المزمنة المتعلقة بأنفاسي

أريد أن أتففسك وأشم العالم الحي بين عينيك

أريدك والآن سمرائي.

أنهى تسجيلاته قبل الدخول عبر باب الزركان، الذي يحمل تاريخًا يعود إلى ق ١٦ الميلادي، وكانت تدخل عبره وفود العبيد القادمون من بلاد السودان، مرَّ عبر حي بن يارة ومنه إلى سيدي أحساين محاذيًا للجامع الكبير، ومنه إلى ساحة الأندلس ثم مر عبر الصابة المظلمة ودلف إلى البيت، وجد ياسين في انتظاره، تبدو عليه علامات القلق، اعتذر منه، ونام بعد أن تناول عشاءه البارد.

نام وهو يفكر في ياسين، ما أجمل أن يكون في العالم شخص لا ينام حتى يطمئن عليك، ما أجمل قلب ياسين، لكنه لن يحدثه الآن فهو متعب يبحث عن نقطة نوم، وقد نام دون أن يغير ملابسه.

انشغل ياسين بحديثه عبر الشات مع كريمة، ومع غير كريمة، فمنطق العلاقات الافتراضية لا يحميه الوفاء التام، هذا الإدمان النوعي على الشات الليلي يجعل منه محترفًا للسهر رفقة أسماء نساء، مجرد أسماء أغلبهن مستعارة، وهو أيضًا يملك شخصية افتراضية توازي شخصيته العادية، يملك أصواتًا متعددة لجسد واحد.

ومن ليست لديه أصوات في داخله تهمس له، تحدثه، تصرخ في جوفه، وتنازعه التأمل والتفكير، وقد يحلو لهذه الأصوات أن ترتفع في أوقات غير

مناسبة كحفنة يقظة قبل النوم مباشرة، الأصوات كثيرة في داخل كل منا، يجب فقط ترتيب حواراتها وضبط أوقات حضورها وتوزيع الصمت بينها بديمقراطية وعدل، ولكنها ليست كائنات منصاعة للقانون والقيم، إنها أصوات فقط، مجرد أصوات هلامية لا تستمع ولا تحترم الآخر وتتزاحم في الكلام ورفع مستوى الضجيج الداخلي، وإذا عدنا لتاريخ هذه الأصوات الكائنات نجد أنها تكونت بالضبط مع البلوغ، حين أصبح لدينا شيء نخفيه عن الآخرين، أفكار شريرة، أحلام ساخنة، أمزجة غير ثابتة وغير مفهومة. كل هذه الأشياء تحتاج عملاً سريعاً وحوارات داخلية، والحوارات تحتاج كائنات تتحاور، فحين تشاهد أنثى لا تستطيع لمسها تعمل في ذهنك سيناريوهات كثيرة وتحدث جلبة وصراخاً في داخلك، إقليم في جسدك يريد قضم نهدا، وإقليم يريد الاستقلال التام ونسيانها، وإقليم يريد الحكم الذاتي على شفيتها، وإقليم يريد استعمار كل جسدها.

حكام هذه الأقاليم يستوطنون داخلك ولكن المدير العام مهووس بالكبت فتبقى أصواتهم دون صوت، هم أيضا يكبرون مع الزمن ويصبحون أكثر ديكتاتورية ككل الحكام، بعضهم يستيقظ ليلاً في غفلة منك ويستعمل جسدك ويفرغك من رحيق الحياة في متعة لذيذة لا تنتبه لها إلا وأنت غارق صباحاً في مواد لزجة، وبعضهم يرتدي قبعة الحكمة ويعيدك لرشدك غالباً في النهارات المعتدلة المزاج فتنصاع للحاكم الأكبر وتبدو راشداً، هذه الكائنات الموازية لك مجرد أفكار تتناطح ذهنك ومخيلتك، وتثري شخصيتك بوجهات نظر متباينة، وهذا ما يشكل وجودك، تكون شخصاً عادياً تتجاذبه الحياة، هناك كائن جميل داخلي يعجبني أكثر يستيقظ فقط أمام فم توتي وعيون لوزية ونهد متوسط الحجم نافر.

هذا الكائن يعبر بشفافية ويكثر من التبسم الجميل، حتى حين يهزه جسد مثير أو فكرة لذيذة يلاعبها بلطف ويمررها عبر اعترافات بسيطة، فكثيرًا ما يتجه نحو فتاة في الشارع أو في الثانوية ليخبرها أنها جميلة جدًّا، وحين تسأله: وماذا بعد؟ يقول لها فقط أردت أن أقول لك: كم أنت جميلة وينظر إليها في تمسرح يربك حساباتها، وحتى حين تقول له ماذا تريد مني؟ يخبرها أنه لا يريد شيئًا يريد فقط أن ينظر إليها وأن تعرف أنها جميلة في عيونه، فلا تملك إلا أن تضحك من طريقته وفي ضحكتها يزداد تعلقه بها، فيطلب منها ألا تغيب عنه وأن تعطيه صفحتها الفيسبوكية، ويستمر الحوار بينهما في عالم الخيوط العنكبوتية، وسرعان ما يتحول من حوار بين الأعين إلى حوار جسدي عام في ليال خاصة؛ حيث تتفق الرغبات على صنع وهم كبير يساعد الجسدين على التوازن الهرموني، كأن كائنًا آخر يتدخل ليصاحب كائنًا مثله في جسدها، فالذي حدثها صباحًا ذات يوم مطير ورومنسي ليس هو الذي سيحدثها عبر الشات الافتراضي في ليلة جاحدة يبحث فيها عن الخلاص الجسدي، يبحث فيها عن قمامة وهمية وحضن لغوي بين ملامس الهاتف والحاسوب، وهي أيضًا لا تعرف نفسها بعد جمل ساخنة تفتح شهيتها للكلام، فتنزل المفردات من العيون نحو قرارات مظلمة تروض الصدر وتلامس شعيرات العانة، وتفتح أبواب النعيم، تخلق وهمًا بالنشوة وتعيشه حد التماهي، وتجعل الأنا مكتفية بذاتها وبآخر هناك عبر أسلاك الشبكة العنكبوتية وصور متواردة ووصلات فيديو وتسجيلات من عمق الشبكية اللاسلكية، وحتى حين يلتقيان صباحًا لا يدركان بعضهما كأن غربة تقف بينهما كأنهما يحتاجان لوسيط مساعد إلكتروني ليمررا رغبتهما في العناق عبر الجمل، قد يلتقيان حقيقة ولكن سينتظران الليل لبدأ طقسهما اليومي

وكأنهما عاشقان لا يفترقان، كثير من الفتيات المحافظات نهارًا يمارسن عملاً عشقيًا محترفًا كل ليلة.

تمنهن اللغة قوة عاهرة لممارسة سريرية على شاشة الهاتف، تشتغل الأصابع على الشاشة الحساسة كما تشتغل على الجسد، تلمس بخفة وتممر بلطف وتضغط بقوة وعنف في ذروة الجمل التي تقال قبل القذف، ثم تصمت، إيقاعات مترتبة وكأنها فاعلية سريرية، استراتيجية لغوية إلكترونية سرية تمارسها كائنات تستيقظ ليلاً فقط، فالكائن اللطيف الذي ابتسم تحت أشعة الشمس ولم يكن يرغب إلا في التعبير عن نفسه أمام لوحة جمال أنثوي أمام باب الثانوية تستولي على أراضيه كائنات أخرى ليلية وتسرق منه فتاته البيضاء ذات الأخلاق العالية، يلاعبها فيسبوكيًا ويهدم دفاعاتها الوهمية، ويجعلها عارية وراء هاتفها الذكي، ذكي لأنه ينقل الأحاسيس أيضًا ويجعل لمسة على زر لمسة حقيقية يحسها الآخر على شفثيه أو خده أو بطنه أو يبالغ في الملاعبة ليحيها في مناطق حميمية الحضور، أزرار تنتصب لها الخيام والخلايا وتفعل فعل التقبيل والعض والقضم والضغط، يسهل خداع الجسد ولكن اكتشاف الانخداع بالجسد هو الأمر المريب، في رحلة كتلة عضوية تكونت في كيس الصفن نحو الانعتاق تحدث روايات تستدعي لها اللحظة كل الإمكانيات التخيلية والرؤى الحلمية، فيصبح العضو مركز الكون وبؤرة الحكاية، إليه تتجه كل المفردات والجمل، وتلك الفتاة أو الفتى الذي يستقيم في الصباح كذات أخلاقية تنكر عهر الليلة وقد استطاعت أن تقهر اللحظة عبر الخيال والأزرار، متعة قد تتدخل أبسط المشاكل التقنية في شبكة الاتصال في منعها أو التشويش عليها، يصبح العضو ملك المحادثات الساخنة وتصبح الكتلة المنوية محاطة بجيش الخلاص اللحظي الذي يبدو

آنذاك أبدئيًا، ولكنها اللحظة، سيرة من الخيال والهرمونات وقاعدة جسدية من الأعضاء التناسلية، وهنا لا نقصد التناسل إلا من باب العادة.

تلك الفتاة المحافظة حين تلعب دور العشيقة المعشوقة، تمارس حررتها في التمتع بجسدها رفقة شريك بعيد عنها، فهي بذلك في مأمن من رقابة العائلة والآخرين، وفي مأمن من الخوف والفضيحة خصوصًا إن دخلت عالم المتعة باسم مستعار، إنها تقف على بعد اشتهاً وتترك لملامس الحاسوب أن تعيث عشقًا خياليًا على جسدها، وربما يتسرب العشق لقلبها فتصبح منهوكة القوى وتخرج أخيرًا للبحث عن الحقيقة، تبحث عن حقيقة رجل من لحم ودم ولبن، وتستمر حكاية الألف كلمة وقد تتوج بليلة، ذلك أننا تسكننا كائنات متعددة لا نأمن قرارات كل واحد منها، ولكن القرار المؤلم لفتاة هو الخروج عن جدران الافتراضي، فهي لحدود ذلك تقول إنها تمارس حقها في الرغبة فقط والاشتهاً، والله لا يحاسب على الرغبة في القيام بالجريمة بل على الفعل، وهي إلى الآن لا تتجاوز تخوم الأسلاك الشهوية للإنترنت والأثير الهاتفي الفاضح، هي حتى الآن تمارس رغبة فقط على غرار المجموعة القصصية اللطيفة لبصير، تحلم وتمارس فعلاً لغويًا ينقاد له الجسد وتستجيب له الغدد، ولكن الفقيه يقول إنها خلوة، خلوة عبر النت؛ حيث الذكر يحدث أنثى غريبة عنه. هذا المنكر السري الذي لا يستطيع أحد تكهنه. فهي لا تمارس الرذيلة باسمها بل باسم مستعار، وهكذا تبقى القبيلة مصونة لا يمسها وسخ، ولكن الوسخ الوحيد هنا يمس روحين وجسدين يعبثان وراء الشاشات؛ روح تتعذب بالقلق وجسد يحترق بأنصاف المتع، سلطة القبيلة تفعل فعلها القارس وتفرض الحضر عبر الأنا الأعلى؛ لتقوم بتدعيم سلطتها على الفرد من خلال

الجنس والمتعة. الجرأة وراء الشاشة تزداد حتى تنفجر خارج جدران  
الفيسبوك وداخل جدران بيوت مظلمة من الحجر والطين والآجور.  
ينام ياسين بعد منتصف الليل بساعات، والهاتف فوق صدره.

صباح ثقيل، ضباب كثيف وحرارة مرتفعة، اضطراب في طقس المدينة التي من العادي أن تكون مشمسة في يونيو، طقس أثر على الناس وعلى الحركة،

أيتها السماء لا تمطري ماء

فالأرض عطشى للحب

أمطري

قبلاً

كي ينبت العشق.

السماء لا تمطر شيئاً، مكفهرة كأنها غاضبة، ولكنها لا تمطر، منحبسة الغضب لا تجرؤ على الانفعال، يستيقظ ياسين متأخراً، يتناول فطوره على عجل فهو يعلم أنه يضيع وقتاً ثميناً في السهر ليلاً والبقاء في الفراش حتى الضحى وقت الامتحانات، أما أيور فقد عاد من الخارج بعد أن شعر بالجوع، عاد من فترة مراجعة امتدت من الفجر حتى الضحى، لا يعجبه حال ياسين؛ لذلك بقي صامتاً وهو يتناول فطوره، صمت أيور ثقيل جداً، كهذا الصباح، لا يدري كيف ينبه صديقه لضرورة مراجعة حياته التي بدأت تتدهور بسبب الهاتف اللعين، وتلة الفتيات الافتراضيات.

- أرجوك ياسين، أنت تقلقني بما تفعل، حاول أن تجد لنفسك وقتًا للدراسة، لا تتراجع عن أهدافك بهذه السهولة، أنت تغضبني حقًا، وتعرف أن غضبي قاسٍ جدًا.

قالها أيور في غضب

ثرثر ياسين أكثر من نصف ساعة وهو يعلم أن ثرثرته فارغة وأن كل ما يقوله خارج المنطق، أصبح مدمنًا على الهاتف والفيسبوك، ولا شيء يبهر إدمانه في هذا الوقت من السنة الدراسية، لا شيء يبهر تضييع الوقت؛ لذلك بقي أيور صامتًا، طيلة اليوم واليوم الموالي، منكبًا على دفاتره لا يعير انتباهًا لياسين الذي بدأ يشعر بأن صديقه يعاتبه بشدة، شدة تزداد يومًا بعد يوم، أخذ مذكرة أيور وفتحها على آخر صفحة فيها، وكتب له رسالة:

أشعر بالحزن يا صديقي، لا أريد حتى تلك السحابة من عدم التفاهم بيننا، أنا أعرف أنني أبالغ.. لكني فعلاً أريدك وأريدني بخير.. لا أكون بخير أبدًا وأنت صامت وأعرف أنني جزء من أسباب قلقك هذه المرة.. صمتك قاتل وأنت تعلم مكانتك عندي، أنت لا تتخيل السيناريوهات والسيناريوهات المضادة المتكررة والمعادة والمستعادة، ولا تعلم حجم خسائري العصبية وأنت واقف كتمثال من البرونز البارد لا تنفعل ولا تغضب ولا تحزن، لا أعرف لك موقفًا ولا وجهة نظر، إن كنت غاضبًا فاسحب غضبك مني، وإن كنت حزينًا فاسحب شمسك الغاربة عن أفقي، فأنا أكره اللون البرتقالي للرحيل، وأحب أصفر الشروق وشعاع الصباح.

عندما عاد أيور بعد الظهر رآها فوق فراشه وقرأها وكتب تحتها رسالة ثانية:

لا تحزن يا صديقي، أنا لست غاضبًا ولا حزينًا، أنا في نقطة من اللاشعور  
بمعنى نفي الشعور، قد نسميها الحياد، السبب هو تركيزي الكامل على  
الامتحانات النهائية، حذرتك أكثر من مرة من طريقتك في التعاطي مع هذه  
الظروف، ومن غرابة تعاملك مع نفسك، وأظنني أوصلت رسالتي كما يجب،  
وقد أغلقت هاتفني وقطعت اتصالي بالعالم الافتراضي رغبة مني في عدم  
تشيت مجهوداتي، هذا كل شيء يا صديقي الغالي.

بعد أسبوع انتهت الامتحانات وانتصب الفراغ قائمًا، غادر الكثير من الطلبة  
وبقي أيور ينتظر نتائج البكالوريا، ياسين يعيد الامتحان في دورته  
الاستدراكية، أيمن قرر البقاء في تارودانت والعمل مع سي علال في المحل،  
أما أسامة فقد اختفى منذ بداية يوليو، لكنه اتصل بأيمن ليحتفظ له بغرفته  
بالبيت ريثما يعود من رحلته.

بدأ أيور يهدأ شيئًا فشيئًا، مع مرور الأيام وتأخر ظهور نتائج البكالوريا بدأ  
الغضب ينسحب منه، التوتر الذي يجعله نشيطًا ومتحفزًا طيلة العام الدراسي  
وينهك أعصابه، بدأ يستسلم للراحة والهدوء، الأمر غريب حقًا، كيف ينسحب  
الغضب من فكر الإنسان ومن جسده.

اللحظات التي تشعر فيها بأن غضبك بدأ ينسحب من جسدك كأنسحاب المطر  
من الغيم، تفكر ما الداعي للغضب أصلًا، وتتذكر تلك المقولة التي طال ما  
تتردد بين الأصدقاء، لم الحزن حين يكفي الغضب، ولم الغضب كله حين  
يكفي بعضه، ولكنها تظل لحظات محايدة وباردة، كالعودة من الجحيم،  
تمسح عنك عنف الإحساس كما تسمح المرأة مواد التجميل عن وجهها بعد  
دخولها للبيت. لا ندري تمامًا كيف يكون إحساسها وهي تزيل قناعًا من

المساحيق التي غطت بها عيوب بشرتها وزينت بها لون شفيتها ورموشها الاصطناعية، هل تعتقد المرأة حقًا أنها تتجمل بخيوط البولستر وشعر الماعز؟ وإن وقع رجل في غرام أشياءها الاصطناعية ألن يكون مجرد حبّ بلاستيكي يزول بزوال أسبابه؟ لا ندري حقًا كيف يكون الحوار بين المرأة ومرآتها، تلك النظرات المتبادلة.

يستسلم أيور للواقع كما استسلم زوج نيكول كيدمان في فيلم «الآخرون». لم يكن يريد أن يشرح لها أكثر؛ لأنها لن تفهمه أبدًا، وتحتاج لتجرب بنفسها، لن يقنعها بأنها ميتة وأنها مجرد شبح يسكن بيت الأحياء الذي كان بيتها القديم قبل أن تعتزل الحياة، رحل كالغضب فقط، وتركها عرضة للتجربة، انسحب حاملاً محفظته العسكرية مرتدياً سرواله الأخضر زاهباً لمقر وفاته إبان الحرب كجندي مقتول. ينسحب منك الغضب ثم القلق وتبقى عارياً أمام نفسك، تتساءل كيف فعلت هذا وكيف فعلت ذاك؟ تجد الوقت الكافي لتلوم نفسك على قرار اتخذه جسدك بدلاً عنك، تجد وقتاً لتقول في داخلك إنك قد تسرعت حقًا وغضبت، أو تحاول تبرير غضبك ولكن الأمر لا يعدو تقريرًا صريحًا للذات الغاضبة من طرف ذات أخرى هادئة، ربما هي محاسبة الذات أو الذوات التي تعيش داخلنا.

الشعراء فقط يعتقدون أن أشياء أخرى تسكنهم، ذوات أخرى ترافقهم، أحلامهم الجميلة بتغيير العالم وجعله جنة، يداري أسامة أحلامه عن الريح كي لا تذروها، فما أخف أحلامه، إنها صغيرة كابتسامة طفل عذبة بصوت رنان، وكخصلة امرأة في الهواء، إنها كبقايا التبغ في مخيلة أيمن، ما هذا الحزن الذي يلف العالم ويمتطي صهوة الريح؟ ما هذا الصمت الكئيب الذي

عَمَّر قلب أيور بعد انسحاب الغضب العام والتوتر الروتيني الذي أنهك أعصابه؟ أيور يفكر في مستقبله وفيما سيفعله بشهادة البكالوريا.

حين بلغ به الحزن مداه أخذ تلك المذكرة المشتركة بينه وبين ياسين وكتب عليها رسالة جديدة:

إنها الأشياء المريضة ذاتها تحدث، علينا أن نعترف حبيبي ياسين أنها أشياء مريضة، ماذا يعني أن تقوم من فراشك وتعود إليه بعد نصف ساعة؟ ما معنى أن تفقد شهية الأكل والكلام وحتى رد السلام؟ ما معنى أن تعود لك شهيتك ليلاً وتلتهم كل ما في المطبخ من حلويات وفواكه وبقايا طعام العشاء؟ إنها الأعيب تمارسها الذات على الذات، أصبحت من فصيلة الدمويات الباردة، أتلقى الموجات وأنسج منها قطعاً أرتديه بأناقة، فتبدو الدواخل المحطمة ناصعة الحضور كعارضة أزياء هجرتها الخطوات، ولكنها تكابر بابتسامة بلاستيكية، كسمسار عقارات أعلن إفلاسه وباع منزله، ولكنه ما زال يقطن فيلا قيد البيع، كشاعر مفلس الاستعارات كلما طلبت ديوانه قال قيد الطبع.

بقي أيور وياسين يلوكان أياماً صعبة بين الانتظار والترقب والتجاذبات اليومية، بين القلق والسويعات القليلة للفرح، وكان لياسين الوقت الكافي ليرافق كريمة، وربما لأنه شعر بقدوم العطلة أراد أن يبقى معها أطول وقت ممكن، يلتقيان بعد العصر ليجلسا في مقهى بعيداً عن الأعين الراصدة حتى يقترب الغروب فيسير في الطرف الشمالي للسور؛ حيث الأضواء الخافتة لا تفضح العشاق، يضمها إليه في الظلام، كذلك يفعل مجرى الوادي الوعر يزداد كل سنة ليقترب من السور كأنه العشق الأبدي بين الماء والتراب، يوماً ما

سيصل النهر إلى قاعدة الأسوار ليهدمها، ليقبلها ربما، ولكنها حتمًا تذوب رغبة فيه.

علاقة ياسين بكريمة الافتراضية تجاوزت المرحلة السريرية، ولكن علاقتهما الجسدية واقعيًا لم تقطع أشواطًا كافية تجاه الالتحام، استطاع أن يعريها تمامًا من ملابسها، كما استطاعت أن تعريه من أفكاره، وما يحدث عبر الإلكترونات شبقي جدًّا، وها هو ياسين يحاول أن يردم الهوة بين الافتراضي والواقعي، ويجعل كلامه أكثر سخونة في حضرتها.

يحدث عبر التاريخ أن يخرج الوادي الوعر عن طوعه ويفيض على جنبات السور ويسري دفءً لذيذ على قاعدة الأسوار الطينية المبللة بماء النهر العاشق وبماء مطر متأخر جاء في غير مواعده، مطر أواخر يونيو جاء ليودع الناس، إن تارودانت مدينة لا تعرف الاعتدال في الطقس، تأخذك بين فصول أربعة في نفس اليوم، وربما لهذا السبب كان لأبناء المدينة أكثر من أربع أمزجة في اليوم.

- هل تحبني؟ قالت كريمة.

- أموت فيك.

- لا، أجبني فقط هل تحبني؟

- نعم.

- نعم ماذا؟

- نعم أحبك

- لم تحتاج كل هذه الطاقة لتقول كلمة بسيطة؟

- ألسنت مرتاحة معي؟

- أنا مستمتعة ولكني تائهة، كل ما أفعله يعجبني فعله فقط، لكن شيئًا ما في داخلي يحتاج أن تكون معه، أن تحتضنه كما تحتضني، أحيانًا أشعرُ بأنني فارغة تمامًا، وكلما طرحت السؤال على نفسي، ماذا نسوي الذي بيننا؟ أعود إلى رسائلنا فلا أجد شيئًا غير الكلام الساخن الذي يصهرنا، ولكن ماذا عن تلك الوحشة التي أحسها في داخلي؟ قليلة هي كلمات الحب التي تدفئني بها، بل منعدمة ولا تقولها إلا حين أسألك أو حين تغيب عن نفسك في خضم اللهفة.

- أرجوك كريمة، هذه أول مرة تحدثيني هكذا، أنت لا تخبريني بدواخلك وأنا لن أسألك ما دمت أراك بخير أمامي.

- عليك أن تشعر بي، صدقني أنا أشعرُ بأنني ملعونة، ملعونة ترتدي قناع الحب، ولكن الشيء الآخر في داخلي يعرف أنني لست محبوبة بل معشوقة فقط، وتبقى مساحة شاسعة من التيه داخلي، أتبعثر فيها كلما افترقنا وفرغنا من طقوسنا، أنا أقرأ كثيرًا عن الحب ولكني لا أشعرُ به، أشعرُ فقط بالرغبة تسري في عيونك كلما التقينا، ولا أشعرُ بحبك.

- تعرفين أنني أحن إليك ولا أستطيع أن أعيش في هذا الخراب دونك، أنت وحدك تبررين فراغ هذه المدينة.

- أنت تقول كل شيء عدا كلمات الحب، أنت حريص تمامًا على تسمية المسميات بأسمائها، تأتي إليّ فرحًا ونمضي وقتًا طيبًا، وهذا كل شيء.

- لم تقولين هذا الكلام الآن بالضبط؟

- ربما لأنني كبرت قليلًا، واكتشفت أنني ملعونة، وقد اكتشفت أن الاحتياط واجب على كل عاشق وعاشقة، الحب يسحب من الرجل نسبة مهمة من الواقعية الضرورية للحياة الصحية نفسيًا، ويعطل عند المرأة حاستها السادسة التي تخص الإحساس بالخيانة العظمى للجسد، فيعيشان أزمة بلاهة يسمونها حبًا أبدئيًا، دعنا من هذا الحديث الآن وأخبرني عن أيور كيف حاله؟

- إنه بخير، لديه الوقت الكافي ليمارس القراءة والصمت.

وصمتًا معًا، كأن الموقف كان ينتظر فقط كلمة صمت لينتهي، ولكنها بدت كبيرة وشهية، ورأى أمامه تاريخًا من القبل واللمسات، كانا يكتفيان بقبل خفيفة حتى صارًا مع الوقت حفرتان من الشهوة والغنج والشبق، لا يمكنه أن ينظر إليها بالرومنسية الحاملة التي تريدها هي؛ لأن العلاقة منذ البداية تأسست على غدر الجسد للروح، والشيء في داخلها الذي لم تستطع تسميته هو الروح، الروح تحتاج أن تحضنها روح أخرى عبر نظرات من نوع خاص لا تشتعل شهوة، ربما كانت تقصد ما قرأته في «ذاكرة الجسد» وأرادت أن يضمها بحنان فقط دون شهوة.

لأول مرة يشعر ياسين بأنه سيفقد شيئًا، ينتابه خوف صغير من أن تبتعد عنه كريمة، خوف صغير جدًّا، لكنه حارق، لا يريد أن يفقدها والآن بالضبط، ظل

يتشبث باللاحب ولكن هناك روابط تبدو أقوى، يصنعها الجسد مع الجسد، نوع من الاعتياد والألفة، خليط من الرغبة في التملك، قد لا تسمو هذه الرغبة إلى منطقة الحب ولكنها تظل قوية وجارفة.

تعلم اللجوء إلى الصمت من أيور، بدل أن يثرثر في ارتباك كما توقعت كريمة، بقي صامتًا ينصت إليها في برود، كانت نظراته شاردة ومشوشة، فيها من الغش في النظر ما فيها، كان واضحًا في علاقته بها، وفي علاقته بنفسه، الآن حتى الحقائق البسيطة الواضحة تختلط أمامه وتبدو صورًا مشوشة تحرك يد المصور في آخر لحظة من التقاطها، ولكنه لجأ إلى الصمت كآخر قلعة ضد اللافهم وضد الانفعال اللحظي.

استمرت كريمة تنتقد تفاصيل كثيرة في علاقتها به، وهي لم تفكر من قبل في فلسفة هذه العلاقة ولم تقف لحظة لتقول ما قالتها الآن، كانت منجرفة فقط ومصممة على الإيقاع به في شباكها، لكن الشباك التوث عليهما معًا، غرقًا معًا في بحر اللذة الحلو، ولم تجد وقتًا لتفكر في الإطار العام لعلاقة شاذة في نظرها، في نظرها فقط لأنها علاقة عادية في عالم الثانوية الذي تلعب فيه المتعة داخل الملعب وتوضع المشاعر في مقاعد الاحتياط في انتظار أن ينضج المراهقون بما فيه الكفاية ليفهموا معنى الحب، هذا إن كان العمر ينفع في معرفة ماهية الحب.

الحب، إنه شيء لا يُدرك معناه، يُعاش فقط، وكل من حاول تلمس شكل الحب يفقده، كأنه يقول أنا هنا ولكن لا تستطيعون رؤيتي.

عادًا معًا عبر البوابة الجديدة التي فتحتها البلدية مقابل الوادي «الوعر»  
ودخلًا إلى المدينة عبر حي «جنان عزيزو» ثم «جنان حميمو» ومنه إلى  
«مجمع الأحباب» المعروف بـ«فرق الأحباب» ومزًا قرب معهد التعليم الأصيل:

- لم لا تأت لزيارة أيور سيكون بالبيت؟ خاطب ياسين كريمة

- دعها لوقت آخر لقد تأخرت في العودة للبيت.

- هيا لا تكوني عنيدة، ترين أيور وتخرجين مباشرة.

- ألن تعد لي شايًا؟

- على الرحب والسعة، وهل يوجد أغلى منك لأعد له شايًا؟

- إذن دعنا نرى الشاعر الذي أعشقه.

- سأشعر بالغيرة.

- شعور غير مبرر.

- وهل تبرر الغيرة؟

دخلت كريمة عبر الممر المظلم، فانتابها إحساس غريب، حتى كادت تعود  
أدراجها لكن ياسين أمسك بيدها حتى لا تسقط في الدرجات الثلاث للسلم،  
هبطًا إلى البيت ودخلًا إلى الغرفة، لم يكن أيور هناك، كان قد خرج للتو  
للتنزه، كانت دعوة ياسين لكريمة بريئة في البداية ولكن الصمت والهدوء  
بالمنزل جعله يفكر في مخططات أخرى،

في المطبخ كانت غلاية الماء تعلن بصفيورها أن درجة الحرارة بلغت المائة، ولكن الشاي لم يُعد، انهرق الماء على جنبات الغلاية حتى انطفأ موقد الغاز تحته، فأسرع ياسين وهو يعدل ملابسه لتوجيه زر إطفاء الموقد نحو الصفر، رغم أن رائحة غاز البوتان انتشرت قليلاً في المطبخ، ثم عاد ليكمل ارتداء ملابسه وهو ينظر إلى كريمة التي تسرع في لم شعرها بمقبض بلاستيكي أزرق.

- ماذا لو دخل أيور فجأة؟ قالت.

- لقد وضعت القفل من الداخل.

- إذن كنت تخطط لكل شيء؟

- ربما، لا يوجد رجل لا يخطط للأمسية رفقة امرأة جميلة، ما أشهاك.

- أيها الأحمق أين الشاي؟

- كنت بركائناً أحمر.

- وكنت شديد اللهفة، أخاف أننا أخطأنا التوقيت.

- كيف ذلك؟

- المهم الله يسر.

وهو يسير في المدينة كان التبن يتطاير قربه، التبن الذي كان يخترق عالمه في القرية وهو يساعد جده في ذر الشعير، كان الأمر سحرًا بالنسبة له وهو يراقب كيف يحتفظ البيدر بالحبوب الثقيلة وتذرو الرياح التبن الخفيف، وكان يعيش حالة من الدهشة الجميلة وهو ذاهب إلى محل بيع الملابس، كلفه سي علال اليوم بالاعتناء بالمحل طيلة اليوم؛ لأنه سيذهب لسوق الجملة لإحضار السلع الجديدة، عليه إذن أن يبقى في المحل طوال اليوم، سيستقبل الزبونات ويساومهن وسيحاول قدر المستطاع رفع الثمن حتى يستفيد من هامش الربح دون إذن الحاج علال.

الزبونات كريمات جدًّا مع شاب رياضي وسيم وحالم، وعارف بخبايا الأربعينيات، تدخل المرأة إلى المحل وتطلب طبقًا داخليًا بلون قرمزي وتقول لأيمن أنها سترتديه لنفسها فقط أما زوجها فلا يستحق، فهناك رجال لا يقدرّون النعم التي منحهم الله إياها، أيمن يعرف جيدًا كيف يواسي امرأة محرومة، سألها عن أولادها وزوجها في اهتمام بالغ، وطلب منها أن تصبر على حياتها معه من أجل أولادها فقط، ومن أجل صورتها أمام الناس.

قالت له إن المرأة يمكن أن تصبر على كل شيء، وفي كل زمان ومكان، مع مُعدم أو مع غني، في كوخ أو في قصر، لكنها لا يمكن أن تصبر على سرير بارد، فالحياة قصيرة جدًّا على أن تضيعها في المشاحنات مع زوج يهملها بسبب المشاكل، رغم أنها تحمل كل هم البيت حتى مصروف اليوم تتكفل به؛ لأنه فقد عمله. «ولكنه ليس رجلًا رغم ما فعلته من أجله يذهب ليرافق بنات

الجامعة، لو فعلت مثله لخربت بيتي ولكن ها أنا صابرة حتى يفعل الله خيراً». تقول ذلك وتعتذر من أيمن لأنها أفرغت ما في قلبها عليه وهو بعيد عن مشاكلها الزوجية بحكم سنه.

دفعت مبلغًا محترمًا مقابل قطعتين.

وهي في الحقيقة دفعت ثمن إنصاته لشكواها، كأن البائع هنا طبيب نفسي يحسن فن الاستماع ويأخذ مقابل صبره، من أجل إكرامية طيبة، كان أيمن يعرف كيف ينصت، وكان يدفع المرأة للصبر ولا يدعوها للابتعاد عن زوجها، يبدو نصحه لها أخويًا ولكنه بين ثنايا كلامه يمرر تلك السموم التي تجعلها تعود مرة أخرى لتتحدث إليه وتشتري قطعتين جديدتين بنفس الثمن وبلون مختلف.

- عليك أن تهتمي بالأولاد لأنهم قطعة منك، وإن كان هو لا يدرك هذه النعمة التي أمامه فسيذكرها آخر، ولكن الأهم هنا هم الأولاد، هل تستطيعين التخلي عن أولادك مثلًا؟!

- لا، مستحيل.

- إذن اصبري، واعتبريني بئر أسرارك، أنا هنا وقتما تريدين، ورقم هاتفي عندك اتصلي حين تحتاجيني.

هي ستتصل ليلاً حين يشتد بها الحال، فالهاتف ليلاً يتحول لمخدع أصوات تمرر الجنون العاطفي.

أيمن اعتاد مثل هذه الحكايات، هي ليست أول ولا آخر امرأة تأتي إلى المحل لتجرب لباسًا جديدًا وتغير لباسها التقليدي، وهو يدرك أن بعضهن لسن صادقات تمامًا، وأن الهجر السريري ليس دائمًا حقيقيًا ودافعًا فعليًا للبحث عن اللذة في محل بيع الملابس النسائية، في إحدى المرات جاءته امرأة ثلاثينية تشتكي له حركات زوجها المقرفة في السرير، وكيف أنها عافت مظهره؛ لأنه لا يمارس الجنس إلا وهو سكران، تلك المرأة أثارت أيمن بحكايتها ووصفها لعالمها السريري، فلم يمض يومان حتى كان أيمن في سريرها وكانت كاذبة، لم تكن متزوجة أصلاً بل مطلقة تعيش مع أمها في بيت قديم بحي «أولاد بنونة» وكانت أمها عجوز عمياء لا تدري ما يحدث في البيت.

كانت ليلة واحدة فقط انجرف فيها أيمن بشدة، لم تستمر العلاقة فلا فائدة من امرأة ثلاثينية تعمل بمطعم شعبي لتسد رمقها ورمق أمها العجوز، ليست من نوع البرجوازيات التعيسات، إنها امرأة لعوب ثرثارة ولا مال لديها، فقد ظلت تساومه وتراوده على قطعة ثوب حتى فقد فيها نصف ثمنها.

لا فائدة من امرأة جميلة وفقيرة، وفوق ذلك ثرثارة - قال في نفسه- البرجوازيات الكبيرات التعيسات هن الجميلات.

أصبح أيمن محترقاً في فن الحب والعطف، يجعل المرأة تفرغ جعبتها من الكلام كأنه طبيب نفسي، لكنه لا ينسى أن يأخذ أجرته على حسن الإنصات، إن الأزمة أزمة حوار، وقد تعلم من الكبيرات حسن الصبر وحكمة التريث، الطبخات السريعة لا تكون مغذية ومفيدة، الطهو يكون على نار هادئة ويحتاج وقتًا طويلاً، حتى المرأة لا تثق في رجل سريع الانصهار، الوصفة

السحرية هي الانتظار والتثاقل واختيار الوقت المناسب لرمي الصنارة،  
الصيد لا يكتسب تلك الهيبة أمام البحر من التسرع والغرور بل من التريث  
والتواضع أمام الأمواج.

نتائج امتحانات الجامعة كانت متواضعة جدًا؛ لذلك قرر أيمن البقاء في  
تارودانت كي لا يواجه أسرته الصغيرة في القرية، رغم الأخبار السيئة التي  
وصلته عن أخته المراهقة، لكنه كان قد فقد كل رغبة في الانفعال، والنخوة  
التي كانت رأسمال كل قروي ضاعت مع كل لفيفة حشيش ولفة شارع، هكذا  
دون أن يدري فقد أيضًا الرغبة في الدراسة واستسلم دون مقاومة للفشل  
الدراسي.

لا تستطيع أن تقنع شخصًا ميثًا بأنه ميت، هذا بالضبط ما حدث لنيكول  
كيدمان في فيلم «الآخرون» كذلك لا تستطيع أن تقنع شخصًا غير راغب في  
الحياة بأن الحياة جميلة وتحتاج فقط القليل من النضال ضد الأيام.  
أسامة لم يعد من أكادير.

ربما لن يعود من مدينة العهر الجميلة.

فقد أيمن الاتصال به منذ أسبوع، لكن الأمر بدا عاديًا، منذ أن فقد الرغبة في  
التواصل مع نفسه فقد الرغبة أيضًا في شد حبل الصداقة مع الآخرين،  
يحتفظ فقط بابتسامته لأيور، ما زال يحفظ المودة العميقة له ويعانقه بحب  
كلما التقاه في البيت.

لكنه لم يعد منذ أن أنهى الامتحانات ودون أن ينتظر النتائج رحل إلى أكادير، هو يعلم أنه سينجح، معدلاته دائماً مرتفعة ويتربع على عرش اللائحة دائماً، فكان لا ينتظر صدور النتائج ليعلم أنه من الناجحين، لقد اختار شعبة يفهم جيداً مساراتها ويستطيع أن يضبط دروسه بسهولة.

أغلق أيمن المحل بعد العشاء بقليل، وعاد إلى البيت، به رغبة جامحة في أن ينغمس في الوحل الأربعيني حتى النخاع هذا المساء، كان شيء في داخله يتأجج ويشتعل وكان يفكر في راضية خصوصاً أن الحاج لن يعود الليلة.

تحجج بترك المفاتيح للحاج في بيته ليصعد للطابق العلوي، دق الباب ففتح الابن الأوسط خليل الذي طلب منه الدخول وألح عليه كي يساعده في إنجاز واجباته المدرسية، براءة الطفل جعلته يدخل ويجلس في الصالة الخارجية، في الوقت الذي ذهب فيه خليل لإحضار كتبه ودفاتره دخلت راضية فرماها أيمن بغمزة حارة جعلتها تفهم أنه على نار هادئة ويكاد ينفجر، في المرات القليلة التي كان فيها أيمن هو الذي يبادر باللهفة كانت راضية تشعر بأنوثتها تستيقظ كأنها فتاة مراهقة تصاحب رجلاً لأول مرة.

بسرعة أنهى خليل تمارين الرياضيات بمساعدة أيمن الذي حذره من أن يعلم الحاج أنه ساعده كي لا يعاقبه المعلم، هكذا استطاع أن يجعل حضوره سراً بينهما، بعد تناول العشاء الذي أعدته راضية والذي كان عبارة عن لحم بقر مشوي، توجه أيمن إلى بيته ليغير ملابسه، ويصعد للسطح حيث سينتظر راضية.

بعد ساعة تقريباً، كانا في غرفة الغسيل على الأريكة الوحيدة هناك.

- هل نام الأطفال؟

- كيف لا ينامون وقد وضعت لهم منومًا قويًا في الحليب.

- ألن يؤذيهام الأمر.

- لا أبدًا، بل هو مفيد لهم ولنا.

فكر أيمن أن الأمر بسيط جدًا ولكن تبنا بدأ يتذرى أمامه فسرح بخياله مرة أخرى، بقي مدة يداعب تبن البيدر إلى أن نبهته راضية التي أنهت مكالمة مع زوجها، وتأكدت أنه لن يعود الليلة وأوصته أن يبتعد عن عاهرات إنزكان كي لا يصاب السيد، من أجل صحته فقط أما هي فلن تلتقط منه شيئًا ما دامت الأسرة متفرقة بينهما وباردة حد الصقيع، منذ أن أصبحت تعامله كأب لا كزوج فهي عشرة عمر كما صرحت لأيمن وهو أبو أولادها رغم كل شيء.

بدأت تبدي بعض العطف على سي علال ربما بسبب السنين التي قضتها معه رغم العذاب والمشاحنات، ورغم أنه اغتصب بغير قصد شبابها وتركها بعد أن انفلت عقاله وأغرته مراهقات ما قبل العشرين.

عاد أيمن من رحلة التبنا ونظر إلى راضية الأم ورغب في التهامها، سيرضع من الحنان كما احتاج دومًا، كلما كان الجسد أشد بوئًا كان الفعل العشقي عنيفًا، عادة حين تكون رفقة امرأة لا تعزف كل ألحانك دفعة واحدة، فهناك نساء لا يحتجن جوقة المعهد الموسيقي ليفهمن الحب، تعتمد على قيثارة بأوتار حساسة لمعاني الدفء، وتقفل الجمل بقبلة خفيفة ولا تضع القيثارة على الأرض بعد العزف، بل خذها بحنان بين ذراعيك، ولكن مع امرأة كراضية

ورجل كأيمن يصبح العزف شعبيًا بضربات قوية على الدف وعلى الردف، تهتز لها قوائم السرير في غرفة الغسيل، فهنا لا نتحدث عن كاماسوترا الحليب والنبيد بل عن حرب طرق وحوادث جنسية، إنه مزيج من الاشتهاء والرغبة والفوضى والقرف أيضًا، بقدر ما تكون بعض العلاقات مقرفة بقدر ما تكون شهوانية وتمس حيوانية الإنسان في العمق، وما الجنس إلا ممارسة الإنسان لحيوانيته في أبهى حللها.

بقدر كرهه لها كان يضرب عميقًا كأنه يدق مُدبة في حقل شاسع ليربط هناك حرمانه الأزلي المحكوم برفقته، وكاد يبكي، لكنه منذ علم قواعد اللعبة لم يعد يسمح لشخصه بالحضور إلى مقر العمل، كان بعيدًا عن ذاته، يجول في حقل راضية، فحين أنهت مكالمتها لسي علال على مسمع منه، وبمجرد أن وضعت هاتفها انحدرت عيناه عن وجهها وانتشرت حول صدرها العامر، وكاد يبكي، هو لا ينظر إلى عينيها الحارقتين المحروقتين بالشهوة والخيانة كي لا يرى فيهما زوجها المسافر، ينظر فقط للحقل الشاسع عبر منعرجات كثيرة، كانت تشعر بأنه تزود بلفافة أخرى أو بقرص فياجرا ولأول مرة تخاف منه ومن هيجانه، لكن الأمر كان شهوانيًّا في قمة العنف وأعجبها هذا الخليط من الخوف والرغبة والمتعة والشر واللعب والدم والخدوش والسيلان.

وكاد يبكي حين فكر أنها حقل شاسع جدًّا وأنه ضاع فيه بحمق، خصوصًا حين عرف أن بجوار الحقل بيدر مهجور، وسطه بقايا تبين يتذرى الآن أمامه، ويدخل عينيه الدامعتين في سرية تامة، التبين حارق يشتعل داخل العين، ولكنه لا يشعر به بل يتتبعه حين يعلق بشجرة الأركان ذات الأشواك والثمار الصفراء، لا يمكنها أن ترى سهوه في ظلمة خفيفة بغرفة الغسيل.

ونزل أيمن مسرعًا ليرتمي في غرفته بعد أن دخن لفيفات جديدة من  
الحشيش، قتل نفسه ونام، اللفيفة الأخيرة همست في أذنه ألا يحزن، قالت  
له:

الآن أنت هنا ... الباقي مجرد أدب ككل حكاية عادية.

ولدت ذات يوم

بعد سنوات فقدت طفولتك، كبرت وأصبحت رجلاً في عشر سنوات بعد أن  
فقدت والدك

ترعى الغنم..

تحرث الأرض وتركض خلق اللقالق.

اللقالق تحب ديدان الأرض حين يقلبها المحراث.

تصعد أشجار الزيتون

وتجني الحبات المتساقطات

وتبيعها لصاحب المعصرة التقليدية

وكان يسمى بابا علي

كان الطفل داخلك مؤجلاً

يلعب في خوف

حيث لا حماية ولا أمن

حيث أفعى السواقي تتربص به

حيث عقارب الوقت تلدغه

ونحل الفوضى يطير قربه

مهددًا بالسع.

والغريب أنك كنت منسجمًا مع داخلك كل هذا الوقت

ورعبك الخائق المحتفل في الظلام داخلك الآن لا أساس له فنم وسط

الدخان

وسط كومة التبن.

لو تحدثت الأريكة في غرفة الغسيل ماذا سيقول؟ سيحكي حتمًا حكايته مع بيت سي علال، منذ تكسرت قائمته وأخرج من الصالة الكبيرة، وفارق إخوته، كان حينها معزلاً يستقبل عائلة سي علال وعائلة العروس راضية، وهو مغطى بأقمشة زهية الألوان، إنه يلعن تلك المؤخرة البدينة التي ارتمت متهاكة فوقه ذات يوم وأهلكته، ولأننا في تارودانت لا نرمي الأشياء المستعملة بل نحتفظ بها في سطح البيت، البالي لا نفرط فيه، كذلك احتفظوا به في غرفة الغسيل وهي نفسها جلسة الحمام البلدي، بعد أن قطعوا القوائم الثلاث المتبقية وسووه بالأرض. فانبطحت الأريكة وانبطح الجميع معه، حتى القيم انبطحت.

أصبح شاهداً على سيناريو خبيث، يراقب القلوب الأخرى المستعملة والمحالة على التقاعد العاطفي، يراقب الانبطاحات الكبرى ويشيح بنظره خجلاً مما يرى، لكن الخشب مع الأسف الشديد لا يستطيع أن يصرخ.

ها هو يراقب راضية تجمع خياناتها بسرعة خوفاً من ضربة البرد ولو أن الجو حار في يونيو تارودانت، ها هي تجمع بقاياها وتراقب البقع الزرقاء التي تسبب لها بها أيمن الذي كان أكثر من رجل اليوم، كان وحشاً كما رددت في داخلها وهي تبتسم وترفع كتلاً كبيرة من صدرها اعتزازاً وفخرًا، ربما تعلم جيداً وأصبح محترفاً في ميدان العهر الشرس الذي لا يقبل مسحات الحزن إلا إن تولدت عنها جولات عنيفة من الهيجان.

تنزل راضية وهي تدندن في منتصف الليل، وتتجه للحمام لتغتسل من أدران الشغب المتأخر الذي تمارسه بعد الأربعين.

أسبوع آخر وينتهي يونيو، يرحل إلى الأبد حاملاً معه غباء المدينة التي تُلحفت بجو خانق، لا يدري أيور لم يشعر بأن هذه المدينة أصبحت أكثر غباء، تبدو بليدة في لونها البني الذي فقد بريقه الآجوري الذكي، تارودانت بليدة، في جوها بلادة وعلى أرصفتها تسير كائنات بليدة أيضاً، حتى كلابها تبدو مسالمة وغير مهتمة بالفرح، الفرح ذكاء تصنعه المدن المرححة التي تحضن المرء بين أضوائها الصاخبة، لكن هذه المدينة وكلابها الضالة لا تتحرك ولا ترقص ولا تنمو، إنها مدينة بليدة توالى عليها الحضارات والممالك ولكنها ظلت صامتة كحجر.

إنها تعنون لانكسارات حقيقية طبعت جيلاً من الشباب، من العشاق خصوصاً؛ حيث لا حب ولا قصص دافئة، الإلكترون وحده يعيث فساداً في الأدمغة، تحول كل شيء إلى رموز غريبة عن الذات وهم البشر، يستلقي ياسين عارياً إلا من سروال قصير بسبب الصهد الذي يجعل الجسم دبقاً ويحتاج استحماماً كل نصف يوم، ياسين يتعري من نفسه أيضاً، يحمل هاتفه النقال ويغوص في حوار ساخن مع كريمة، الحوارات الساخنة لا تشرحها الكلمات بل حالة الجسد فيمكن لكلمة أن تكون ساخنة ولها وقع القبله في وقت معين، ويمكنها أن تكون باردة جداً في وقت آخر غيره.

نسي حضور أيور الغارق في عتمة خاصة هذا الليل إلى جانبه،

وحين أراد أن يفتح معه حوارًا بدا كأنه يعتذر منه على غيابه في حضوره، الهاتف بين يدي ياسين لم يعد يكفيه، عليه أن يخطط للقاءاته مع كريمة بين جدران أربعة تحميها شر البصامين والبصاصات، وقد فكر أن يفتح أيور في ذلك ولكن الخجل منعه، الحديث عن الجنس بين الأصدقاء ممارسة جنسية أيضًا؛ لذلك يستحسن تجنب كل ما يثير مشاعر الرجال في غياب أنثى حقيقية.

- ماذا تقرأ؟

- لا أقرأ شيئًا، رغم أنني أحمل هذا الكتاب منذ ساعتين

- كيف ذلك؟

- ياسين هل تحب الله؟

- نعم أحبه وأحب رسول الله.

- أنا أيضًا أحب الله، وأثق بعدالته وأثق بأن كل شيء في هذا الكون الفسيح يدل عليه، منذ أن أنهينا الامتحانات وأنا أقرأ عن الروح، أبحث عن معنى الروح ولم أجد، قرأت كل شيء عن الجسد والروح والموت وعن العائدين من الموت، عن تفاسير الروح في مختلف الديانات، ولم أجد شيئًا، بحثي عن الروح قادني لأن أجد الله، أن أشعر برعايته، قل لي فقط لم يحرم الله أشياء تبدو ممتعة؟

- مثل ماذا؟

- مثل الجنس، خارج الأطر الدينية طبعًا، الزنى.

- لا أدري، فقط أعلم أن الحرام حرام وكفى.

- وما القصد من تحريم شيء جميل، وبما أننا لا نستطيع كبح جماح شهواتنا؛ لأن من طبيعة الشهوة ألا تكبح.

- بما أن الله حرمها وهو الذي أودعها فينا فهذا يعني أننا قادرون على الامتناع عنها، وإلا فلم يخلق فينا شهوة ويدعونا لكبحها، لا بد أن الأمر ممكن ما دام النهي من عند الله.

- هل أنت روحاني في حياتك؟

- لا أظن ذلك، قد أبدو لك طيبًا ولكني لست كذلك، أنا أرتكب أخطاء كثيرة وما زلت أسير نحو الغرق، ولكني أدرك ذلك، أدرك أنني أغرق في بحر من الطمي.

وصل الحوار بينهما درجة مفخخة وكأن كل واحد يحدث نفسه وليس الآخر، واصل أيور تأملاته في خضم الحديث، ولكن ياسين بدا حائرًا، كأنه فقد ذاته، لا يريد أن يجعل تجربته محل نقاش، ولا حياته محل تحليل، يريد أن يعيش فقط، أن يكتشف ولو عن طريق الخطأ كل شيء، وقال في نفسه أن ابتعاده عن أيور جعله يترهب داخل قوقعة من الأفكار والتأملات، ولكن الأمر بدا له أيضًا عاديًا جدًّا، فهو لم يناقش معه شيئًا جديدًا عن حب الله وعن الروح وعن الآخرة والحساب، ورغم ذلك استطاع أن يجعله مرتبًا خصوصًا حين

فكّر أن علاقته بكريمة وصلت مرحلة غليان الماء وانهرأقه على موقد الغاز في المطبخ.

نام ياسين رغم زوبعة الأفكار التي أحاطت به، ترك الأفكار تغلي فوق رأسه ونام، وربما ستظل هناك تنتظره حتى يستيقظ لتهجم عليه من جديد، لكن طيف كريمة لا يترك له الفرصة ليفكر، الشفاه الندية تذيب القلق الوجودي، وحتى أفكاره عن الآخرة والصلاة تذوب وتبقى اللذة عاصمة للإحساس بالحياة، من أين تأتي تلك الحرارة التي تنبعث من الداخل لتملأ الجسد اشتعالًا، وتملأ الجمجمة بأفكار الشيطان النارية، هذا الدفء الذي يستحيل براكين كل ليلة، لا شيء يطفئ حرائقه غيرها، لا لقاء حول الأسوار ولا رسائل حب ولا لمسات ولا قبّل، بدأ يعشقها ويمرض بها، وهي بدأت تتراجع للوراء ويمد يده ليمسك بما تبقى له منها.

وبقي أيور يتأمل سقف الغرفة ويمروح على نفسه كي لا يعرق في هذا الجو الساخن، حين تملك فائضًا من الوقت وتمتحن سيرة الصمت تصبح رهبانًا أو فيلسوفًا، وفي أحسن حالاتك تكون شاعرًا، الشاعر إذن هو ذلك الراهب المتنسك داخل محراب الكلمات الذي يتأمل الحياة، حياته وحياة الناس وحياة الأشياء الأخرى التي تحيط به، وقد يقضي سنوات وهو يتأمل كلمة واحدة، فهناك كلمات قضى الإنسان عصورًا في تأملها خصوصًا الشعراء، كلمة حب مثلاً، كل ما قيل بسببها ومن أجلها قاله الشعراء، يقضون أعمارهم في ترجمتها على شكل قصائد، ولا يفلحون في ذلك، ففي الأخير يقولون إن أجمل القصائد لم تقل بعد، ويعيشون كطواحين دون كيشوط يدقون الماء في جدران الهواء.

ونام بيت الطلبة يضم أرواحًا وأجسادًا حائرة تبتغي الخلاص من مخالب الحياة، من مآزق العيش اليومي، الجسد متطلب جدًّا والروح تعاقبه بالضمير.

إنها شمس الظهيرة الحارقة، مدينة الاشتعال ليلاً ونهارًا، يستيقظ أيور متعبًا بسبب الحرارة المرتفعة، ويتبعه ياسين الذي نام نومًا متقطعًا ذابل العينين، عصبيًا كأنه لم يذق طعم النوم، أشعث شعره كأنه كان في صراع مع قطط ليلية في كوابيسه.

- صباح الخير أخي أيور، كيف حالك؟

- الحمد لله حبيبي، قم لتتناول فطورك.

- سأستحم أولاً، يبدو أن الجو حارًّا جدًّا اليوم أيضًا.

- أكثر من ذلك إنها موجة غير عادية من الحر، أنا ذاهب للسوق لأبحث عن عمل، عن أي عمل كيفما كان، لقد نفذ كل شيء.

- متى ستعود؟

- ليس قبل التاسعة ليلاً، الناس الآن في مثل هذا الحر يخرجون مساءً للتسوق.

خرج أيور مسرعًا إلى سوق الرحبة القديمة، ما يمكن أن يفعله هو مساعدة الخضارين في محلاتهم أو بيع صندوق طماطم بالتقسيط أمام محل من محلات الخضار نفسها، حتى إن لم يحصل على مال سيعود محملاً بكيس من

الخضر المتنوعة، وسيقضي اليوم مع صاحب المحل يتناول معه وجباته  
الثلاث.

فتح ياسين هاتفه على تطبيق الواتساب ووجد صورة لكريمة أرسلتها مع  
أيقونات قلوب حمراء، صورة لها وهي ما تزال مستلقية على السرير بصدر  
نصف عار وعينيها الناعستين،

- كم أنت لذيذة. قال لها.

- صباح الخير هل تناولت فطورك؟

- أنت فطوري اليوم سأتناولك.

- لا أيها الجائع أنا لست طبقًا.

- بل أنت كذلك.

واستمر الحوار بينهما حتى الثالثة بعد الظهر، تحولت الغرفة الرطبة برائحة  
الهواء الخانق إلى وادٍ خصب من الجمال والصور، ومن فوهة الهاتف عاش  
ياسين مسلسلًا من الرسائل الحميمية التي حولته إلى سنديانة مترفعة على  
الواقع، صور كثير ومباشرة من السرير، ابتسامات وضحكات رنانة تخترق  
أعماقه، لغة تموج بين درجات حرارة أشد حرًا من شمس الظهيرة.

- لقد خرج أيور للسوق لم لا تأتين إليّ، لنهني مهزلة الرسائل هذه؟

- أخاف أن تأكلني.

تصادف كريمة أيمن في الممر الضيق، كان يرتدي لباسًا داخليًا وآثار الحشيش بادية عليه، فأسنانه التي لا يعتني بها كثيرًا بدأت تصفر ويعلوها القلاح، ابتسم في وجهها وتركها تدخل لغرفة ياسين الذي كان مستلقيًا ككومة نار، تفاجأ بها وبجرأتها، إنها مجنونة تمامًا وجنونها لا حدَّ له، الجمرة الخبيثة التي تسكن ما بين أرجلنا هي المجنونة، قالت له وهي نصف سكرانة.

في كاماسوترا الجنس الإلكتروني، وبين شعب الهواتف الذكية لا تحتاج النشوة تلك التحضيرات الحقيقية التي تستلزم وقتًا وديباجة عشق، أصابع اليد وهي تلامس الشاشة الحساسة تعتمر البدايات ويكون اللقاء فقط لطبع جواز السفر والرحيل بعيدًا في واد خصيب.

الرجل القديم منا سيعتبر الأمر إشباعًا وهميًا للجسد، وسيضحك، سينقلب رأسًا على عقب من الضحك، سيقول في نفسه كيف بهؤلاء القوم يمارسون النكاح بهواتف نقالة وعبر شاشات تحمل صورهم وهم أنصاف عراة أو عراة تمامًا، سيضحك ملء شذقيه من جيل يكتفي بذاته من أجل جلب اللذة، ولكن الأمر ليس كذلك، لم نصل بعد لتلك المرحلة ما زالت الوسائط جسور عبور فقط للجسد، حضور في غياب على حد قول الشعراء، حضور عبر وسائط تخلق تواصلًا ضروريًا بل آمنًا وبعده يتم اللقاء، لقاء بمعنى التشابك، بمعنى الموت.

صحيح أن الأوهام قد تستمر وقد يكتفي المرء بتلك اللذة الوهمية رفقة شريكه، ولكن ذلك لا يعدو كونه هروبًا من الأطر القوية للمجتمع التي ترفض التجمعات الجنسية خارجها، إنه الأمن العاطفي والمجتمعي يسمح بتلك

السلوكات التي تجهز اللقاء الأكبر، كما فعلت كريمة التي كانت مجنونة بما فيه الكفاية لتباغت ياسين في غرفة نومه.

غادرت بسرعة كما جاءت بسرعة، وتركت المجال أمام أيمن وياسين لملء الجو بالحديث بينهما، وبالكثير من الدخان في غرفة أيمن، قد يكون دخانًا وقد يكون تبنًا مَدْرَى، أكداس من الضباب فوق بعضها بعضًا، وقد بدا ياسين أيضا خارج سلوكه المعتاد بسبب رائحة الحشيش رغم أنه لم يلمسه، ولكنه تناول ملعقتين من المعجون مع كوب الشاي.

وبين فترة وأخرى يرحل أيمن إلى قريته ليستمتع لأنشودة قديمة وبعيدة تتناهى إلى سمعه، صوت امرأة قروية من بلدته تغني مواويل حزينة جدًّا، وهي تغزل على النول سجادة وتزينها بآلاف الحكايا، كما يسمع صوت جده وهو يصرخ على الأحصنة والحمير التي تدور حول البيدر لتدرس المحصول من الشعير، ولا يعود إلا بتنبيه من ياسين.

- تبدو صديقتك صغيرة في السن. قال أيمن.

رد ياسين:

- نعم هي كذلك، إنها تدرس في نفس الثانوية

- هل أبوح لك بأمر؟

- تفضل.

- أنا لم أعد أنظر إلى جمال الفتيات الصغيرات، لا تغريني الأحجام الصغيرة، تبدو لي طفلة ولا أستطيع أن أقربها، تعرف بليتي طبعًا ولا أخفيها عنك، أنا أعشق الكبيرات فقط، وحتى الآن لا أستطيع أن أرى الجمال في جسد فتاة أصغر مني، وأقسم لك حين سأتزوج سأختار امرأة كبيرة ممتلئة والأفضل أن تكون مطلقة.

اندهش ياسين من كلام أيمن الذي بدا أكثر سهوًا وهو يتحدث، ليس من فرط الحشيش بل من هذيان غير مبرر ينتابه بين لحظة وأخرى، شعر ياسين بالتقزز من أقوال صديقه لكنه لا يظهر ذلك، فبأي منطق يتحدث هذا الرجل، صحيح أنه يعرف عنه بعض ما يفعله؛ لأنه لم يعد يخفي الكثير من أسراره، إلا سر علاقته براضية، فرشيد كان يفضح كل شيء في محاولة لاستقطاب ياسين أيضًا للدومين، أما أيور فقد بنى بينه وبينهم جدارًا من الصمت، ولا يجروء أي شخص منهم على فتح مثل تلك المواضيع أمامه، وخصوصًا في حضرة ياسين، فياسين يحافظ على رفيق روحه أكثر مما يحافظ على نفسه.

- الجمال أذواق لا تناقش.

قالها ياسين بتأكيد.

فأجابه أيمن متنهدًا متوسلاً كأنه يستعطفه:

- أخبرهم بذلك أرجوك قل لهم إن الجن في داخلي يحب الأحجام الكبيرة.

- من سأخبر؟

سأله باندهاش.

- أخبر أهلي وكل من يتجمع قرب البيدر.

- أي بيدر؟

- البيدر الذي يأتي منه كل هذا التبغ.

سرعان ما انتبه ياسين إلى أن الرفيق أصبح يهذي حقًا، وأنه بدأ ينوح نوحًا عتيقًا، وعرف أن تأثير الحشيش مزمّن وليس مرتبطًا بهذه اللحظة، سرعان ما تجمعت تحت عينيه كومة من الحزن من الورق الخريفي مرمية في بركة من دمع غدر بالمقلة وتجمع تحت جفنيه، هو ليس على ما يرام قال في نفسه، وحاول أن ينهي هذه الجلسة النهارية التي لا مبرر لها مع هذا الكم من الدخان المحيط بقلبه والذي غلفه وعزله عن واقعه.

اشتغل أيور في السوق طوال اليوم، أفرغ شاحنة صغيرة من صناديق الخضر، وباع صندوقين من الطماطم أمام باب المحل، كان يومه مريحًا، على الأقل سيكون لديه مصروف لبقية الأسبوع؛ لأن راضية ما زالت تنعم عليهم بالوجبات بين يوم وآخر، بعد ذلك ذهب إلى الحمام العمومي ليغتسل من أدران هذا اليوم الشاق، وعاد يحمل سندويتشات للعشاء، له ولياسين، ثم ارتدى على فراشه من شدة التعب.

يونيو ما زال متربّعًا على كرسي الشهور، جاثمًا على قلب المدينة المختنقة بالشمس والغبار، الأحاسيس أيضًا مختنقة بالغبار وتميل نحو اليبس، يستيقظ أيور باكرًا ليتجه لسوق الخضرة مرة أخرى فقد اتفق مع التاجر الذي عمل معه بالأمس على العودة للعمل، ارتدى ملابسه المتسخة وخرج مسرعًا، سيتناول فطوره مع صاحب المحل، كل وجباته ستكون على حساب المحل، من العيب في المدن الصغيرة كتارودانت أن تترك أجيرك دون طعام، فتكون مسؤولاً عنه حتى ينتهي من عمله.

ياسين نائم، لا يمكنه أن يستيقظ وقد أمضى الليلة في حوار مع كريمة عبر الفيسبوك، أصبحت تسكنه ولا يرتوي إلا بها، الحوار أصبح عالمًا من الغنج والقُبل التي لا تنتهي، كيف لا وقد أصبح لكل كلمة مدلول حسي على جسده وعلى جسدها، وأصبح للنقطة قوة العناق وللفاصلة ثقل تنهيدة بين خصلات شعرها الحريري الأسود، يطلب صورة لنهديها ليموت وينتهي، ويطلب صورة لردفيها ليُصلب على شجرة الشهوة، ويطلب صورة لكل بقعة منها ليبعث على شهادة قطرات تعيده للهدوء، يتمسك بخيط التواصل ليصنع سريرًا له ولها، سريرًا من أزيز الكلمات وبراعي اللذة والعادة السرية التي لم تعد من السرية بما يناسب المصطلح.

لو ولد ديوجين الكلب في عصر الصورة كان ليخجل.

يطل ياسين على غرفة أيمن ليجدها فارغة فقد كان عليه أن يفتح المحل لاستقبال البضاعة التي سيحضرها الحاج علال؛ لذلك قرر أن يقوم بعملية تنظيف للبيت كله بما فيه غرفة أسامة التي قد ينبعث منها الدود بسبب الرطوبة، غاب أسامة شهرًا ونصف الشهر، غرفته مغلقة ولكنها ليست مقفلة، فقرر فتحها ليدخلها الهواء لم يدخلها الهواء أبدًا، الهواء رفض الدخول للغرفة، رغم أن الباب مفتوح على مصراعيه، ربما كان الصراع حادًا بين عالمين عالم أسامة والعالم الخارجي، صراع بين هواء فاسد بداخل الغرفة وهواء جديد يريد طرده من مملكة الرطوبة والغياب.

أحيانًا ينخرط الإنسان في تنظيف بيته ومحيطه لكي ينظف داخله لا غير، فعمليات الكنس والشفط والغسيل هي ما تحتاجه بعض القلوب لتزيل درن الأيام، حين تتكدس الأحداث على قلبك ولا تملك مجالًا للتفكير فيها وإعادة النظر في حياتك، تكون صباحات التنظيف والترتيب فرصة لترتب فيها دواخلك أيضًا، وربما هذا سر هدوء ربات البيوت، وسر لهفة بعض الناس على الأشغال المنزلية، ففراغ البيت من ساكنيه والوحدة المرفقة بذلك تمنح سلامًا داخليًا يسمح بالرجوع للوراء دون وجع ودون أداء فريضة الذكريات الحارقة.

اغتسل ياسين من ليلة العرق بماء بارد لينتعش، لكن الماء البارد في بعض الصباحات يجعلك تنتكس على غرور الرغبة والانتعاش، سمع دقات خفيفة على الباب الحديدي، فأحاط وسطه بمنشفة متوسطة وما زال مبللًا بماء الاستحمام، منشفة زرقاء قديمة رافقته من بيته بالقرية، ياسين كبر قليلًا هذا العام ويبدو قوي البنية واسع الصدر والكتفين، بدأت علامات رجولة

تتضح على جسده، بدأ يتجاوز تلك المراحل المراهقة ليستوي شابًا مكتملاً ملامح الرجولة، فتح الباب فإذا بها راضية، تحمل صينية مغطاة بمنديل مطرز، شعر بالخجل منها فأمسك بطرف المنشفة كي لا تسقط من على جسده، ولكنه لا يجد طريقة لحمل الصينية، فدخلت هي بنفسها لتضعها في المطبخ في حين أسرع لغرفته ليرتدي فوذية ويعود ليشكرها.

لكنها التحقت به للغرفة.

تحتوي الصينية على طاجن من لحم الماعز، وطبق فواكه كله من التفاح الأحمر الشهي، قضم ياسين تفاحة كبيرة منه والتهمها في انتظار وقت الغذاء وعودة أيمن، هناك دائمًا تفاحة جديدة للقضم الأبدي، تحضرها أنثى الخطيئة في الصباحات الممددة على الأسرة الشوها.

شعر ياسين أنه فارغ من نفسه، ليس لأنه يخون كريمة، ففي عالم المتع لا خيانة حقيقية لتثير ضميرًا حيًا، شعر بأنه لا شيء، وأنه لا يفرق شيئًا عن كلب الدوار المسعور، لكنه كان متعبًا فنام مرة أخرى، النوم يعيد ترتيب الأشياء في الذهن، وقد يصفوها ويختزلها في ذكرى مضت وانتهت.

اليوم طويل جدًا في تارودانت الساخنة، هي مدينة جنوبية على كل حال، مناخها قاري، تشتعل حرارة في الصيف وبرودة في الشتاء، استيقظ ياسين قبيل غروب الشمس، فكر في أيور، فكر في نفسه، فكر أنه يحتاج إليه ليحكي له ما يحدث معه.

كل واحد منهما يحتاج الآخر ليحكي له حياته الداخلية والخارجية، كأن الحكى هنا مرادف للخلاصات والنتائج، كأنه يقول هنا وصلت حياتي فأين

وصلت حياتك؟ الحكى عملية وجودية خلقت مع الإنسان، ومورست في كل مراحل تطوره، كذلك اعتاد ياسين أن يحكي في حديث المساء تفاصيل يومه لأيور، وأحياناً لا يجد شيئاً ليحكيه، فيبدأ في سرد برنامج الغد، وحين تصل بك الرفقة لدرجة الحكى عن المستقبل، وتكون قد استنفذت قصص الحياة كلها، فاعلم أنك قد بلغت درجة من الرفقة الطيبة وأن الصمت في حضرتها مقدس، هنا يكفي أن تجالس صديقك فقط وتستمع لنبض الحياة، توالي الحكى والصمت يسمح بترتيب الضوضاء الداخلية، وتبادل الضغط بين الداخل والخارج.

أيور غالباً ما تكون لديه حكايات داخلية، فهو يراقب بدقة كل التحولات النفسية في جهازه الداخلي، فيتحدث عادة عن فكرة عبرت ذهنه أو إحساس خالجه، أو موقفه تجاه شيء معين، إنه يسافر عبر الدواخل وقطاراته لا تربط بين محطات متتابعة بل تقف كلما اشتد الحنين لمكان معين، أما ياسين فيحكي اليومي المتكرر ويسرد الأحداث الواقعية أكثر، إنه مرتبط بالحركة والأفعال، فتشعر في كلامه مشياً وركضاً، وتشعر في حركاته نفسها طقساً فرجويّاً كأنه حكواتي ساحة أسراك.

منذ مدة لم يتحدثاً معاً ولم يمضياً الأماسي الصيفية معاً، رافق ياسين كريمة أكثر مما رافق صديقه، وربما لهذا السبب شعر برغبة كبيرة في أن يحكي له كل شيء، كل شيء مهمما كان حميمياً، فالاختلال داخله بدأ يصدر عناوين الخوف، وهذا الجبن والكسل والريبة التي بدأت تتسلل إليه تحتاج رفقة صديق لتهدأ.

لا يحتاج أي صديق بل يحتاج أيور فقط، فبعض الناس يختزلون الكثير من العلاقات، فإن الذي يعرف معنى الصداقة لا يحتاج لكثرة الأصدقاء، بل يحتاج حضور المعنى العميق للصداقة ولو مع صديق وحيد، وقد يغنيك هذا الصديق عن العشرات من العلاقات السطحية التي لا تؤثر فيك سواء استمر أو انقطع حبها.

أيور يعود محملاً بالتعب، فيرتمي على فراشه غير مكترث بالعرق الذي يغسل جسمه طيلة الليل، فالحرارة المرتفعة في صيف تارودانت لا ينكسر حدها، تستمر ليلاً لتغرقك في العرق، نظرات ياسين المتوسلة جعلت أيور يفهم أنه يحتاجه ولكن التعب بلغ مبلغاً لا مفر له من النوم، وضع أيور بعض الخبز وبداخله قطع كبيرة من اللحم في صحن وأحضره لصاحبه ليتناوله على العشاء، كان مستأجره محتفلاً بعقيقة ولده الرابع وكان غذاؤهم وليمة حقيقية؛ لذلك أحضر منه بعض القطع وناولها ياسين.

كان الليل قاسياً على وحدته، مزاجه لا يقبل محادثات كريمة بل أشعر بنفور غريب منها، وخرج للتسكع وحيداً في مدينة لا تنام صيفاً، فكر كثيراً في راضية، كان يعتقد لحدود اليوم أن تلك التصرفات لا توجد إلا في الأفلام الجنسية التي كان يشاهدها على المواقع الإباحية، لكنه عرف أن سقوط الخجل مسألة ثوان فقط، كان نادماً، الخطيئة يتبعها الندم غالباً، يقول في نفسه إنه أصبح فارغاً من المرجعيات، فقد ذاته التي كانت محاطة بالخلق والدين والحياء.

تذكر كريمة ونسيها بسرعة كأنه أبعداها عن مجاله البصري بحركة من يده وهو يرمي السور بحجر كأنه ينتقم من سلالة الطين، لماذا يحيط الندم بكل

هذه المتعة الذهبية للجسد، كل تلك الإطارات الدينية والاجتماعية لا تصلح إلا لحالات الندم، بل هي التي تخلق الندم، وهل سيكون حيوانًا إن لم يخضع لها، ألا يكفي الحب إطارًا لها، وهل كان حبًا ما حدث؟ لم يكن حبًا كان استفراغًا لسائل منوي يتحرش بالخصيتين، بالبيضتين الراقدين في كانون ساخن، هذا كل شيء. كان يناقش نفسه كما يناقش أيور، ويقول له مستفسرًا: لم حرم الله الجنس؟ الله يعلم أن الشهوة قوة قاهرة، فلم منع عتًا المتعة ولم خلقها فينا ليحرمها علينا؟ لكن الله لم يمنعها عتًا بل أباحها في إطار شرعي، الرهبان فقط منعوها عن أنفسهم وحرم عليهم ذلك، الله يعلم أننا قادرون على التحكم فيها؛ لأنه يستحيل ألا نستطيع ذلك، الله أخبرنا بذلك، ولو لم يكن باستطاعتنا التحكم فيها ما منعها عتًا، هذا برهان بالخلف. المسألة إذن محض إيمان فقط.

الكراسي الحديدية التي تحيط بساحة النافورة الملونة بدأت تذوب وتصير سائلًا أسود يشربه ياسين، شرب منه غرفة بيده فصار محزونًا أكثر من ذي قبل، حاصرته أفكار كثيرة جلتها نابعة من الما وراء، سلسلة غير متراصة من الجمل الحزينة والمرتبكة والخائنة، يشعر بفراغ الجسد من المعنى، يريد أن يعود للبيت ليوقظ أيور من نومه ويجالسه.

عاد ياسين بعد منتصف الليل، لكنه لم يوقظ أيور الذي كان يغط في نوم عميق كطفل ممسك بمرضعته الزجاجية، ما كان يحتاجه هو أن يكون قرب صديقه فقط لا أن يكلمه كأنه رجل من طينة أخرى. وضع رأسه على وسادته وراح يفكر في حياته بعد البكالوريا، ستظهر النتائج بعد أيام قليلة، سينجح أكيد لكن ليس بالمعدل الذي يحلم به، استدار إلى جهة الجدار الرطب رغم

الحر في المدينة، وراح يلاعب هاتفه المغلق، لن يفتحه الليلة كي لا تهجم عليه الرسائل وتنسيه تركيزه الذي استجمعه بعد حيرة كادت أن تعصف به وباتزانه. فقرر بعد إصرار وترصد أن يغلقه طيلة هذا الأسبوع وأن يختفي عن مجال كريمة البصري، سينزل إلى السوق رفقة أيور ليعمل في انتظار نتائج الثانوية، الحر منعه من النوم الهادئ وكذلك بعض الأفكار والهاجس التي ظلت تحوم فوق رأسه كأطياف ملتاعة وكأشعار هاربة من جحيم ديوان يحترق، نام رغم بؤس المقام التي عزف عليه هذوؤه المصطنع، سيعمل بتلك المقولة الشهيرة التي قرأها ذات يوم: إذا شعرت بالحزن فاذهب للعمل. عليه أن يخرج إذن من حالته وإلا كان عرضة للاكتئاب والإحباط.

للشهوة مخالب تنهش بها الروح كما تنعشها بأجنحتها اللذيذة، وبين هذا وذاك يكون للجسد وضع استثنائي بين النضوج والاكتمال وبين الشعور بالحاجة والتبعية للآخر الشهي، فدبيب الفرح الذي يسري في العروق لحظة العناق يستحيل نُقْطَ فراغٍ بعد النهاية، لكنها نقط تمتلئ مع مرور الوقت.

لهواء الفجر رائحة خاصة، إنه الزمن الوحيد الذي يبدو نقيًا، لمن يريد أن يبدأ من جديد، يسمع تهليلات المؤذن ونداء الصلاة من الجوامع المجاورة وبعض الشيوخ بجلابيبهم البيض ومسبحاتهم التي تتحرك في عفوية بين أصابعهم، حبات المسبحة تتناوب على المرور بين أصابع الشيخ كأنها اعتادت لمساته، يبدو أن فمه لا يتحرك لكن قلبه ينبض بالذكر مع كل حركة، لقد سلم روحه لله وهو على قيد الحياة، لا بد أن سنوات كثيرة على الكرة الأرضية قادرة على تشذيب الروح والجسد وجعلهما متساكنين حد الاستسلام لبعضهما بعضًا.

إن المعادلة الصعبة في الحياة هي كيف تستطيع أن تقنع الشاب بحكمة الشيخ؟ وكيف تستطيع أن تقنع الشيخ بعنفوان الشباب؟ فالأول يميل للجسد والثاني يعتمد على الروح.

خرج ياسين بعد أن توضأ، انسرب بين جانبي درب «سيدي أحساين» واندلف إلى المسجد الكبير.

أما أيور فقد نام حتى الساعة صباحًا ليجد نفسه في السوق يفرغ شاحنة صغيرة من صناديق الخضر ويرتبها داخل المحل، أعد عامل آخر فطورًا وحليبًا لتناوله، براد شاي بالنعناع وخبز وزيت زيتون، العمل صباحًا فرصة للاستفادة من الراحة بقية اليوم، فحين تستقيم شمس الظهر سيستسلم الكل للظل والكسل حتى حركة الزبائن تخف إلى ما بعد صلاة العصر، وأيور كثيرًا ما يستغل الفرصة ليقرأ قصاصات الجرائد القديمة التي يأخذها من بائع

النعناع والأعشاب المنسمة الأخرى كالكزبرة والبقدونس، قال له ذات يوم في اهتمام:

- آه، أنت تذكرني بالسبعينيات؛ حيث كان للجريدة معنى، وكانت تغير عقولنا وأموالنا مقالات ننتظرها بشغف، أما الآن فالجرائد لا تصلح إلا للبيع بالكيلوجرام من أجل ربطات النعناع والبقدونس.

فرد عليه أيور وهو يبدي نفس الاهتمام ودون أن يقاطعه:

- وهل كنت تقرأ الجرائد في الماضي؟

أجابه وهو يهم بترتيب بضاعته.

- لا، كنا نتحلق حول رجل ما زلت أتذكره في لباسه العصري وقبعته بيريته البنية، ونستمع له حين يقرأ ويشرح، يشرح مشروعًا لم يستطع أن ينهيه في أرض الواقع، كان يقول إن التعليم هو مفتاح هذا المشروع الذي كان واضحًا في عقله فقط، كانت الدولة تخاف من كل من يحمل جريدة تحت إبطه خصوصًا إن كان يجعل الناس البسطاء مثلنا يتحلقون حوله.

- وأين هو الآن صديقك؟

- لقد مات، لو كان حيًّا لأصابه الشلل بسبب غدر من يسميهم رفاق النضال، لقد باعوا أنفسهم وارتدوا على مشروعهم وتناوبوا على البلاد كما يتناوب الزبائن على العاهرة.

كان يتحدث ويملاً التبغ ويستنشقه، نتره نتره وتفيض من عينيه مفردات ملأت ذاكرته حسرة حسرة، المشروع كان واضحاً لكن الصراع كان كبيراً، وكان الرفاق متحولين زومبيين، عامل الزمن كشفهم وكشف بؤسهم الداخلي، لم يتغيرون هكذا؟ سأل صاحب النعناع أيور وراح يرتشف ما تبقى في قاع الكأس من شاي أسود وهو يسب الرفاق بكل ما حفظه في السوق من كلمات لقيطة وعاهرة، يسب ويلعن الحكومة والشعب.

- لقد تناوبوا علينا، على الحكم. قرروا أننا أوباش ولا نستحق الحياة، ولكن بيع النعناع أفضل من بيع مؤخراتنا للتاريخ.

تفاجأ أيور بنبرة عبد المؤمن ووعيه السياسي، ولكنه تفاجأ أيضاً بخيار الصمت والاستسلام الذي يعيشه، رجل رقيق البدن لكنه قوي البنية، صحيح أنه أميٌّ ويتعثر في القراءة ولكنه يعي وضعه، طبقتة، هامشه، وهذا كافٍ ليعي كيانه كإنسان فقير مهمش يصارع اليوم، ويدفع به عجلة التاريخ المعطلة التي توقفت عند رقبته، وفضّل بيع النعناع على بيع أفكاره التي ورثها من جيل السبعينات، رغم أن رفاقه باعوا أفكارهم بثمن باهظ، باعوا النضال وتاريخه مقابل فيلات وسيارات فارهة ومناصب في مجالس حكومية مستحدثة على قياس تاريخهم، يشاهدتهم على شاشة التلفاز ويصق عليهم ويفكر في أن يتبول على التلفاز الصغير في غرفته، يفكر في أن يبول عليهم، أن يشرب لترين من ماء الحياة ويبول بلؤم على غدرهم له وللوطن.

كلامه عمق في أيور رغبة في أن يجالسه كل يوم، عله يسمع منه حكاية هؤلاء الذين يرتدون بزات أنيقة ويتفذلكون في حواراتهم التلفزيونية، هؤلاء

الذين ما زالوا يضعون نضالهم وسنوات سجنهم في كفة والمال في كفة أخرى، فهو يريد أن يفهم الفرق بينهم مثلاً وبين بائع النعناع الذي ناضل مثلهم في يوم كان فيه الانتماء لليسار جريمة شنعاء، كي يفهم اليوم الذي صار فيه الانتماء لليسار تهمة ولعقاً للأحذية، بل أصبح الانتماء السياسي نفسه متبرئاً منه، اليسار الأعرج في المغرب، ضربه النظام بعصا المكنتسة منذ فجر ولادته.

- اللعنة عليهم جميعاً.

- على من بالضبط.

- على السياسيين والعسكر، وعلى هذا الشعب الجاهل المريض الذي لا يريد أن يعي أنه مغبون في حقوقه، أنه مطحون، أنه جالس على قالب من السكر تحت مؤخرته، السكر لذيذ مع القهوة، لكنه ليس لذيذاً في هذا الاستعمال الورائي.

- الشعب يعيش دوامة اليوم، يريد أن يأكل ليعيش.

- إنها سنوات من التدجين، لكنه شعب قابل للتدجين، يستحقون قنابل فوسفورية ليتشتت وعيهم.

- حتى شباب الجامعة مدجنون ويكرهون الحركة السياسية، كل ما يفعلونه بعض الأنشطة الجموعية ويؤكدون بداية وانتهاء على أنهم بعيدون عن السياسة كأنها لطحنة خراء سيصابون بها في وجههم.

- هم أنفسهم خراء، أدمغة مملوءة بالرياضيات واللغات الجافة، وفارغة من الأدب والسياسة، طلبة الجامعة خراء قديم.

- وما السبب في نظرك؟

- السبب هو التدجين، هو العنف الرمزي، هو التحكم في التعليم لصنع جيل الضباع المريضة، في الغابة لا نريد الكثير من الأسود، نريد ضباعًا فقط، وقطعانًا من الكلاب البرية التي يسهل اقتيادها، ولكنهم في دواخلهم جثث محنطة، عقول محنطة، لا يفكرون ولا يقرأون ولا يتأملون أنفسهم، ونضالاتهم لا تتعدى المطالبة لا تتعدى المطالبة بمعدلات بئيسة ترمي بهم إلى البطالة، البطالة ترمي بهم إلى الشارع حيث الجنس والجريمة والمخدرات والحشيش.

- هل يستحق هذا الوعي يومًا؟

- لا أعلم، مع هذه القطعان والجموع الغفيرة من الماعز والكلاب الضالة لا أمل شيئًا.

قالها في عصبية وتناول التبغ من جديد ليملاه وينفخ فيه مستنشقا دخانًا كثيفًا كذكرياته، لم يكن أيور يعلم أن بإمكان بائع النعناع أن يكون شقيًا لهذه الدرجة بوعيه، وأن يحمل في ذاكرته وقلبه كل هذا التاريخ من الشؤم والعدر الذي تعرض له الوطن.

قال له:

- أتعلم معنى الحركة الوطنية؟

- لا .

- إنها أكبر كذبة في التاريخ، إنها مرحلة دموية حالكة السواد، لا تصدق ما يكتبونه لكم على كراسات التاريخ المزور في المدارس، إنهم يكذبون، الحقيقة ضاعت مع أصحابها، طمست ولن تظهر ثانية، لقد رحلت الحقيقة عن هذه البقعة من العالم ولن تعود أبدًا، فلا داع للنبش في قبر التاريخ عن وطن أكله الدود وأكله أولاد الحرام وباعوه بثمن بخس، فيلات معدودات وأرصدة مقابل مصالحة بائسة مع من؟ مع الجريمة، مع القتل والخديعة؟

- أرجوك لا تنزعج، أتمنى أن تهدأ الآن فقط.

- أنا لا أنزعج أبدًا، أنا نادم فقط لأنني تركت الفرصة لهؤلاء القوادين ليسوقوا الوطن على فراش نضالنا، أنا نادم لأنني انكشيت وانسحبت، وها أنت كما ترى، حرقت كل بطاقات الجمعيات والأحزاب واخترت بيع النعناع وهذه المنسمات الجميلة، واخترت هذا المحبوب المعشوق للتبغ أنفخ فيه وينفخ فيّ، لا تتعجب إنه أفضل منهم جميعًا، إنه رفيقي الأعز، لا يفارقني أبدًا، وهو عوضني عن الرفاق، الرفاق الخونة الذين تنكروا لي بعد أن رفضت منطقتهم في التغيير، الكلاب، باعوا الوطن سحًا لهم.

- أفهم ذلك جيدًا، أفهم سبب انعزالك، أنت بسيط وقانع، وتعيش حياتك مع البسطاء والجهل ومن يراك يعتقد أنك أمة بدون وعي سياسي.

- لقد باعوا الوطن.

مرت ساعات الظهيرة في حديث مع صاحب النعناع الذي كان شخصية مثيرة  
لاهتمام أيور منذ ولج إلى سوق الرحبة القديمة، ولم يقاطعهما إلا مرور امرأة  
بدينة تبعها الرجل بعينين جاحظتين وحرقت كل قماش عليها، وهو يهذي:

- لولا هذا الخير والخمير لمتنا كمدًا، ربما هذا هو الوطن الحقيقي ألا تعتقد  
ذلك يا ولد؟

أجاب أيور ضاحكًا:

- ربما.

- هل لك صاحبة، أم ما زلت بتولًا؟

شعر أيور بالحرص، فسؤال كهذا مازق حقيقي لكل شاب في سنه، أمامه حلان  
إما أن يقول الحقيقة أو أن يكذب، الحقيقة أن مغامراته قصيرة في بداية  
مراهقته بالقرية، والكذبة التي قد تساعده هو أن يقول له نعم، لديه صاحبة،  
وفوق صاحبة يرتاد دور الدعارة بدرب كسيمة ودرب الجزارة، فلا أحد  
يصدق الآن أن الشاب قد يعتزل دنيا الجنس من ذاته دون إكراه، لكن أيور  
شاعر لن تعوزه الكلمات في مثل هذه المواقف، ذلك اكتفى بالصمت  
وبابتسامة ماكرة، لم يفهمها عبد المؤمن، خصوصًا أن السيدة البدينة قد  
عادت ومرت أمامهما، وحين تكون جالسًا لتبيع النعناع على طاولة واطئة  
تكون عيونك في مستوى خصر من يمر أمامك وتكون.. رؤيتك واضحة  
الأبعاد.

وكرر عبد المؤمن كلامه:

- هذا هو الوطن قلت لك، صدقني، لا أدفأ من هذا الوطن... ليأخذوا القصعة كلها، الشمال والجنوب والجبال والصحراء، وليمنحوني بضع سنتمترات بين نهديها.

فانطلق أيور في قهقهة طويلة، يتعجب كيف يستحيل الوطن بضع سنتمترات على جسد أنثى، هذا لا يوجد إلا في الروايات التي تزعم أن المرأة رمز الوطن، وأن تضاريسها ووهادها ورُباهها هي جبال الأطلس، تلك الروايات السخيفة التي تغرق في الاستمناء وحين تنتهي من الاستفراغ تتول الأنثى خريطة للبؤر التاريخية والاجتماعية والسياسية أو يصبح العضو مدفعاً وبنديقة، يا لها من روايات سخيفة يقول أيور في نفسه وهو يشعر بقهر داخلي يقاسمه مع عبد المؤمن، خيبة بعد خيبة، وانكسار بلغ حد اللانكسار، فكان التشطي عنوان مرحلة نفسية دخلها عبد المؤمن ليفضل بيع النعناع ومعاشرة المومسات على بيع الوطن والأفكار، إنه كاسر، صقر، لكنه جريح، ولا تظهر قوته إلا حين يحاول قائد المنطقة أن يمسه عربته أو يصادر سلعته، آنذاك يسمع منه ما يصم الآذان من السباب والشتائم، فيعرف القائد أنه فعلاً أمام شخص غير عادي، شخص مستعد ليصب النار على نفسه ويشعل حريقاً داخل وطن.

أسئلة الوطن وأسئلة الجسد، لا تطرق باب الوعي الشقي إلا لتعذبه فأن تكون حاملاً لفكرة النضال من أجل المكان يلزمك الخروج من ذاتك، من جسدك وأن تجعله آخر قلاع المقاومة، آخر محطات النضال تحت الجوع والإضراب عن الطعام، ولكن أسئلة الوطن لا تؤرق ياسين كما تؤرق أيور.

اشتغل ياسين طيلة اليوم مع سائق شاحنة لنقل أثاث أحد المنازل وعاد في المساء ل يبحث عن أيور في السوق، فلم يجده هناك فالتحق به في البيت.

صديقان وحيدان يتجولان حول الأسوار الطينية العتيقة، يخرجان عبر الباب الجديد لحي البلاليع ويسيران دون توقف، وحيدان، هل يمكن أن نقول عنهما وحيدين؟ إنهما متوحدان مع بعضهما بعضًا، التعب بسبب العمل جعلهما مرتاحين، يسيران ببطء وثقل يسمح للكلام بالترسب في الحلق والاصطباغ بغنة الرفقة، منذ مدة لم يسيرا جنبًا إلى جنب، جنبًا إلى شعر.

انطلق ياسين في سرد كل ما يثقله، ما حدث له مع راضية، نقاشه مع أيمن، حالة أيمن التي لا تعجبه، احتياجه لأيور تلك الليلة الحزينة التي قلبت موازينه، ابتعاده عن كريمة وإغلاقه للهاتف وكل تطبيقاته، كل شيء، قال كل شيء كأنه يحدث نفسه، يحدث صديقه دون غضب، دون خوف، ليس كتلك الليلة التي كاد رأسه ينفجر فيها من بؤس ما يضح فيه، يسمعه فقط لا من يؤنبه على الخيانة فما حدث حدث ولا يمكن تغييره، وبما أن الندم هو سيد الموقف فلا داع للضرب على الجراح. ومن عادة أيور ألا يتدخل في الأمور الحميمة، لا خجلًا فقط، ولكن لأنها لا تُفسَّر يقول دائمًا:

- الشهوة فوق كل تفسير، يصعب أن نضعها في إطار عقلي منطقي؛ لأنها مرتبطة بمتغير هو الزمن، فأنا في هذه اللحظة في حلة لن تتكرر، والشهوة بقوة اللحظة تتجلى وتهجم.

واستمر أيور في سلسلة من الأفكار التي حاول ربطها منطقيًا حتى يصل إلى خلاصات يتحدث كأنه يشرح درسًا في المصطلح، وهو يعلم أن هذا النقاش

هو من أجل النقاش فقط، وسيبقى للواقع والحياة الكلمة الأخيرة، أو الكلمة الواقعية.

- أنا نادم جدًّا، أنا حيوان بريّ، خنزيرٌ.

قال ياسين في غضب مفاجئ.

- لا صديقي أنت ربما أخطأت والآن غيرت موقفك وثبت.

- لكن الله لن يغفر توبتي.

- الله يغفر الذنوب جميعًا، لا تيأس من ذلك.

- لماذا نبتعد عن مرجعياتنا، لقد زويت، هذا زنى.

- نعم هو كذلك لكنك تبت الآن، والله يغفر كل ذنب.

- أعتقد أن الله يحبني، هل سيفر لي خطيئتي.

- أكيد الله يحبك، وإلا لما جعلك تندم على خطيئتك، والآن انس الموضوع، لدي مال كثير، وأنا أدعوك لعشاء مميز، شواء يا سيدي في سبيل ابتسامتك الجميلة.

ابتسم ياسين من بين بحر الدموع، هناك أجساد تعتدي على الأرواح النقية، يخطئ الجسد فتدفع الروح ثمنًا من دراهم الحيرة والقلق.

دخلاً مطعمًا متخصصًا في الشواء، تناوَلًا وجبة عشاء من لحم الغنم وخرجًا لاستكمال جولتهما حول الأسوار الترايبية العتيقة كحزن أيور.

لو يتحدث أيور فقط.

إنه هالة من الصمت يستجمع كل لغته في عينيه وقصيدة.

هم كذلك الشعراء، يعيشون حياة عادية وينخرطون في الروتين اليومي، وفي نفس الوقت لهم دروب سرية للتأمل والنظر في الأشياء، وقد ينخرطون في بكاء داخلي وهم يبتسمون في وجهك، كذلك تفعل الشمس تحترق من الداخل لتبعث النور في محيطها الكوني.

- أو تسمعي قصيدة؟

قال ياسين متوسلاً في حركة مسرحية.

- حاضر، من أجل ضحكتك الليلة أقول كل القصائد.

رد أيور متخليًا عن عناده المعتاد، رغم أنه يعلم أن قول قصيدة كاستلال رصاصة من العضل، وراح يفكر في ما تحفظه ذاكرته من سطور نثرية.

قصيدة أولى:

علاقتي بالخشب قديمة

أحب دولابي الخشبي

جواريره الداخلية تحتوي تاريخي وذكريات

إطارات الصور على الرف الخشبي

النوافذ والأبواب والأقفال الحديدية

الباب الكبير لدار الضيافة

مساميره الغليظة

المدقوقة في جدار قلبي

صندوق أمي بأشيائه وأسراره.

ورائحة الحلوى المنبعثة منه.

العلبة الخشبية التي تحتوي أوراق أبي

وعقوده الكثيرة.

حقيبتة الخشبية التي يجمع فيها صحيح البخاري

وألفية ابن مالك.

والمصحف القديم المسفر بوهران الجزائرية.

رائحة الخشب

عالم الخشب.

أنا قطعة خشب، ولكني معدل تكنولوجيا بعناصر فلزية، فأصبحت هكذا  
رهيب التكوين، مادي العلامات، سريع الغضب كمنشار ألومنيوم.

قصيدة ثانية:

قلبي غير مدوزن

يصدر نوتات حزينة

يستحيل أن ترقص الحياة على أنغامها،

تهرب الفاصلة من السطر

فتحتار باليرينا

أتقف على الأمل أم تتأرجح على موج البحيرة

تسير على الرمل وتغرق في السكون

لا يليق باليرينا أن تغتدي تمثالاً

ولكنها تغرق

لأنها تحمل وطناً بجروح ثقيلة

فوق تنورتها القصيرة

تبكي باليرينا

وتنسب دموعها عبر الشاشة وألتقطها عشقًا

حينئذٍ لزم البجع

حيث لا وجع

وحيث طائر الفلامون الأحمر يمد ساقه للمطر

والنورس لا يبكي كما في روايات العهد القديم

حين كتبت أستاذة السيمياء علامة على الهامش

لتقول لا للصفحات الحزينة

وما زال قلبي يعزف رغم الصمت

نوتات حزينة

في عالمين حقيقيين

لا للرقص على أوجاع الحزاني

ولا لدوزنة القلوب اليتامى

لا للموت في درج خزانة مظلمة في الحديقة الخلفية

لبيت انتصار دوليب\* المسكون بالأشباح والموتى.

- هل أنت حزين يا أيور؟

- لا لست حزينًا، إنها طبيعتي فقط، وهو أسلوب في الكتابة.

- ومن تكون انتصار دوليب؟

- إنها شاعرة من الولايات المتحدة، تعشق الأشباح والموتى وقصائدها نسخ طبق الأصل لأفلام الرعب، كالعائدة من الموت وهي تكتب دائمًا في الشريط الفاصل بين الحياة والموت، والماء والدم إنها رهيبة، هشة وقوية، لكن صورها دائمًا مخيفة ومرعبة، وقد تخرج الديدان من بين أصابعها ببساطة، وهي تجالس الموتى وتأكل معهم تراب المقابر، وما الموت أصلًا إلا انسحاب سري من قفص الجسد تأتي ريح خفيفة، لتحمل الورقة اليابسة خارج الحديقة، تسحبها ببطء أو تسير بها خارج الشباك الحديدي أنا أصنفها ضمن الدمويات الباردة... هي تحب أن تنام تحت ورقة تين جافة ويابسة شريطة أن تكون قرب جذع الشجرة حتى لا تطالها أقدام البائسين. تحب أن تصادق ديدان القز الحذرة التي تسير في سكون وصمت وهدوء وتتحرك ببطء شديد، كأنها

---

\* شاعرة لبنانية أمريكية معاصرة.

تستمتع بالثواني الحزينة التي تحيط بها، وقد تصادق ديدان الأرض التي تخشى الضوء وتحذرهما من الثقوب التي يحدثها الألم في التربة، أما الديدان الشريطية التي تتأهب لتعيش في أمعاء الحيوانات فليست من خواصها، هي تكره الاتكاليين حولها، وقد تربط أعمق صداقة مع ديدان القبور فهي التي

تعرف علم اليقين معنى الحب حتى الموت وهي التي تعرف معنى أحبك حد الموت.

- ولم تقرأ لها هذا الرعب؟

- لأن الرعب في داخلي أكبر من صورها.

- ربما لأنك ترفض الكلام.

- لا أرفضه صديقي، دعه في داخلي، الكلام لا يفيدني أبدًا.

- لماذا تكتب ولا تتكلم؟

- لأن الحياة حزينة، باردة وفارغة، كل هذه المساحات البيضاء الصقيعية، يخيفني البياض اللامنتهي، عليّ أن أخط عليه بعض المعنى، وأعيد ترتيب الكون في داخلي، يعجبني أن أنظر إلى نفسي في مرآة متكسرة، مبعثرة، أشعر بالانسجام حينها، كل جزء مني يبحث عن الآخر، وحين أجمع كل القطع، أكون ذاتي، أبحث عن صورتي القديمة فلا أجدها، إما أني لا أعرف نفسي، وإما أني لم أكن أعرف نفسي قبل الانكسار التام، أليس جميلًا أن تعيد ترتيب دواخلك بعد انكسار واستبدال المرايا.

- الأمر يبدو لي غريبًا لأنني لا أكتب، ولكنه ممتع.

ضحك أيور لأنه يعلم أن ياسين قد يسير معه إلى حدود صورته الشعرية البسيطة لكنه لن يفهم حدود جنونه بالصور، فمن أين يأتي بكل الترابطات الجديدة بين الكلمات؟ كيف يحتوي صدره كل الكون، ربما هي حدود

المعقول عند أيور ولكنها عند ياسين تخوم اللامعقول واللامفكر فيه، حواشي  
الجنون السبعة.

ظهرت نتائج البكالوريا أواخر يونيو في الموعد المحدد، كان أيور على رأس اللائحة ونال جائزة التفوق، ياسين حصل على معدل متوسط يؤهله للجامعة، احتفالاً معاً بنجاحهما المنتظر بعد معاناة مع مشوار دراسي طويل بدأ من مقاعد المدرسة بالبادية المهمشة إلى داخلية الإعدادي ثم إلى الثانوية حيث فضلاً البقاء بعيداً عن النظام الداخلي المتزمت.

في المساء بحثاً عن أيمن الذي لم يلتقيا به منذ فترة بسبب انشغالهما في العمل في السوق، وجداه في المحل، تساومه سيدة حول طقم داخلي، انتظراً حتى انتهى من نقاشه معها ثم طلبا منه أن ينضم إليهما على العشاء.

وذلك ما حدث فعلاً فقد أعد ياسين طاجن لحم بالخضر وأحضر مشروبات غازية وأنهى الاحتفالية ببعض المعجون على غير عادته.

قال أيمن محتفلاً بهما:

- ألف مبارك عليكما، يجب أن تفكرًا في الدراسة العليا.

فأجابه ياسين بكلام فاجأ أيور:

- أنا ليس عليّ أن أفكر في شيء لدي مخططات أخرى.

رغم اندهاشه من رد ياسين قال في برود:

- أنا أرغب في ولوج مدرسة المعلمين.

- اختيار موفق، على الأقل تحصل على وظيفة في وطن البطالة.

- نريد أن نودعك اليوم، سنرحل غدا للدوار، سنشتاقك أخي أيمن، اعتن بنفسك.

- سترحلاً بهذه السرعة؟

- ليس لدينا ما نفعله هنا، كما أن موسم الحصاد في البادية ينتظرنا. قال ياسين.

- سيكون البيت فارغاً بدونكما، وأسامة لم يعد أبداً، أنا أيضاً سأترك هذا البيت الفارغ، سأسكن مع أصدقاء لي في الحي المجاور.

- ذلك أفضل ما يمكن أن تفعله أخي أيمن، قال أيور.

خرج أيور وياسين لوداع الأسوار الطينية الحمراء، وتركا أيمن رفقة كومة من التبن التي بدأت تذروها الرياح أمام عينيه، لاحظا قبل خروجهما شروده المنهك، وكيف يحرك يديه يمناً ويسرة لأجل إزالة بقايا التبن عن عينيه، لم يكونا مرتاحين لحالته، لكنهما خرجا للقيام بجولة وداع للمدينة تارودانت.

صعد أيمن للطابق العلوي ونقر نقرتين على باب بيت راضية، وصعد إلى السطح ينتظرها، بعد ربع ساعة لحقت به، في ملابسها المنزلية الصيفية وكانت تحمل سلة ملابس مدعية أنها ستنشر غسيلاً على سطح البيت، لا يمكنه مقاومة هجمات التبن المذرى على عينيه، يجب أن يغمس وجهه في

صدرها كان يحتاجها ويشتاق إليها كشوق الصحراء للمطر، كان متسرّعًا وعنيفًا، الشيء الذي أخافها بشدة هذه المرة فرفضت الانصياع لهجماتة، لكنه هدها بفضحها أمام سي علال، فزاد غضبها.

- عليك أن تثبت وتكون رجلًا كياسين.

- أي ياسين؟

- لم أذكر شخصًا اسمه ياسين.

- أيتها الحمقاء فعلتها مع ياسين؟

- بدأت تغار من صديقك، تريدني وفية كزوجة لك، انتبه لتصرفاتك معي، سأصرخ وأجمع الجيران وأتهمك بالتحرش بي.

- اصرخي أيتها العاهرة، سأكنم أنفاسك بيدي.

نزلت راضية مسرعة عبر السلالم وأغلقت باب بيتها خلفها مما أثار زعر أولادها، نزل ياسين وراءها يسب ويلعن بصوت مرتفع، يسب التبن والجرن البيدر والدوار وكل الشعير الذي تذرره الرياح أمامه، دخل غرفته وتناول لفيفة حشيش تلو أخرى، حتى كاد يغيب عن وعيه.

عندما دخل أيور وجده شبه مغمى عليه قرب باب المطبخ، وحاول إيقاظه دون جدوى فحملة رفقة ياسين إلى غرفته واعتنيتا به حتى بدأ يستيقظ، وحين لمح ياسين قال له:

- إنها عنكبوت ستمتص رحيقك وترميك رمية كلب لا تثق بها.

- كن بخير فقط، أنا لا أثق في أي شخص عدا صديقي.

- الكلبة لا تشبع، وتريد أن ترميني رمية الكلاب، لكني سأقتلها، سأفضحها أمام علال، وسأفضحه أيضًا الشيخ العجوز يستغل بنات العشرينيات.

- يستحقان بعضهما، دعهما ولا تتدخل.

- سأقتلها قلت لك، فقط أنتظر أن يزول هذا التب من حولي، ألا تراه أنت؟ انظر إنه لم يعد يتبع اتجاه الهواء ولا اتجاه الرياح، إنه يتبعني أنا، أبعده عني.

دخل أيمن في هيستيريا كئيبة، وهو يصرخ حينًا ويبكي حينًا ويضحك حينًا، فاتفق ياسين وأيور على أخذه صباحًا لبيت أخته في ضاحية من ضواحي المدينة، أخت شقيقة ستعتني به حتى يكون بخير.

هذا ما تم بالفعل بمساعدة الحاج علال الذي ظل يحوقل وهو ينظر إلى صبي المحل الذي يثق فيه شبه غائب عن الواقع، أعطاهما مالا وطلب منهما أن يطمئناه عن حالته حين يعودان من الدوار، في حين كانت راضية تطل من نافذة بالطابق العلوي وهي غاضبة ومبتسمة في نفس الوقت وفي حقد بغيض، تفكر في أن المشعوذ الذي نصحتها به إحدى صديقاتها لا يشق له غبار، وقد ساعدها على التخلص من هذا الحمل الثقيل.

كانت أخته الكبرى تحمل حزمة حطب حين رأتهم يرافقونه إلى بيتها، رمتها واتجهت نحوه تعانقه وتخفف عنه، وقد هدأ حننًا حين علم أنه في بيت أمه الثانية، بقي على حاله مدة طويلة لكن أخته تحملت حالته بمساعدة زوجها

الذي علم من ياسين أن أيمن كان مدمنَ حشيش مدة طويلة وأن جرعة زائدة تسببت له في حالة اكتئاب حادة جدًا.

أمضى الصديقان الليلة في ضيافة أخت أيمن بدوار أفنسو، وانطلقا في الصباح نحو مدينة تارودانت، كائنا منذهلين مما يحدث، أيمن الشاب الرياضي الجميل الذي يتمتع بجسد رشيق ينتهي إلى مصاب بهيستيريا كثيبة، عادا يجمعان ملابسهما ويرحلا عن المدينة الحزينة، كل ما يملكانه يمكن جمعه في حقيبة لكل واحد منهما، وكيس بلاستيكي كبير، كتب ودفاتر وبعض الملابس القليلة التي تحمل في ألوانها الباهتة آثار ثلاث سنوات كاملة من الدراسة، ألوان باهتة كشعورهما وهما يودعان أيمن الذي نظر إليهما نظرة لا يمكن تفسيرها أبداً، نظرة بها من الفراغ أكثر مما بها من المعنى، كان يتوسلها بعينيه، لا، كان يودعهما فقط، يريد أن يقول شيئاً لكن اللسان لا يسعفه، حتى أنه لم يبادلها العناق بل تركهما يضغطان عليه وهو يرخي يديه كأنه مستسلم لخور أبدي، كانت نظرتيه مستحيلة، نظرة زعزعت كيان ياسين، أما أيور فكان في موجة من التأمل في البحار العميقة لنظرة أيمن، هو الذي اعتاد أن يبقى صامتاً لساعات طوال يفكر في صياغة العالم في صورة شعرية، ما كان يعجز عن تأويل نظرة أيمن البئيسة التي خرجت للتو من عالم الأشباح والغياب والوداع.

هناك أشخاص تعتقد دوماً أنهم أقوياء، ولكن حين تدخل أعماقهم تكتشف أنهم ضعفاء، ضعفاء بما يكفي ليخفوا ضعفهم عن الآخرين، كل ما في الأمر أنهم يفتقدون للشجاعة اللازمة ليظهروا حقيقتهم للآخر، إنهم من الهشاشة بمكان، أمام أول عاصفة يسقطون قلوباً حائرة.

لم يعلم أيور ما قد يفعله بحاجيات أسامة، كان عليه أن يفرغ البيت لسي  
علال الذي سيستقبل فيه فوجًا جديدًا من الحيارى الذين سينضمون لعالم  
القلوب المستعملة، الذين سيكبرون شيئًا فشيئًا وتثبت على أجسادهم  
شعيرات القلق الأبدي وهم يتدربون على العيش.

- هل نترك الغرفة كما هي؟

- لا أدري ربما يعود ليأخذ أغراضه، هو لم يرغب إلا شهرين ونصف، وغالبًا ما  
سيكون رفقة أصدقائه في أكادير، فقد سمعته يوما يتحدث إلى رفيق له  
هناك عبر الهاتف.

- لقد أخذ كل ملابسه لم يُبق إلا على الكتب والدفاتر والمجلات، وبعض  
الملابس المنزلية، ولكن كلها موقعة من كالفا ن كلاين وزارا وسيليو، إن قطعة  
واحدة منها تعدل ثمن ملابسنا كلها.

- سنتركها على حالها، إنها الحادية عشر صباحًا يجب أن نستعد فالوسيلة  
الوحيدة للنقل إلى البلدة ستنتقل بعد الظهر.

نظر ياسين إلى أيور فجأة وسأله بعمق:

- لم نحن هكذا، ما الذي يعترينا فنتفك كقطع أحجية، لم نحن معطوبون في  
دواخلنا؟

- إنه الشتات يا صديقي، يحول إنسان اليوم إلى نصف إنسان، ربع إنسان،  
وتجد من يعيش غربة يشعر معها أنه لا شيء على الإطلاق.

قال ذلك ثم تابع الحديث سائلًا ياسين في مودة الوداع:

- ياسين هل تؤمن بالعهود؟

- نعم صديقي، أو من بها جدًّا.

- بم تعاهدني إن سألتك عهدًا؟

- أعاهدك على السؤال عنك وانتظارك مهما غبت، فالغياب لا يعني النسيان،  
أعاهدك على مساندتك في كل مراحل حياتك خصوصًا في المنعطفات  
الخطيرة، أعاهدك على حضور عرسك واحتضان أولادك، أعاهدك على متابعة  
إبداعاتك حتى تنشرها وتصبح كاتبًا مشهورًا.

- أنت ستجعلني أبكي يا رجل، هيا يكفينا عهدًا.

- أعاهدك على محو دموعك كلما بكيت بالمناديل والعناق والكلمات  
والمواقف.

- أحبك صديقي، عاهدني على أمر أخير.

- ما هو؟

- ألا تكف عن الدعاء لي بعد موتي.

- أعدك، وإن مت قبلك لا تكف عن الدعاء لي فأنا أرغب أن أصيب الجنة.

تعانقًا كأنهما يودعان بعضهما للمرة الأخيرة، بل كانا يودعان البيت الذي جمعهما لسنوات، وإلا فهما يسكننان غير بعيد عن بعضهما بعضًا، بعض اللحظات تختزل عمرًا من الحنين، دمعت عينًا ياسين، أما أيور فلا يبكي أبدًا، لم يبك يومًا.

- لدي اقتراح.

- ما هو؟

- نجمع أوراق أسامة ونحتفظ بها، تعرف أنه يكتب بعض مذكراته.

- أوافقك، إن تركناها هنا قد يعثب بها الطلبة الجدد قبل عودته، أو أبناء سي علال مثلاً.

طرق قوي على باب البيت الحزين، رجلان بمنتهى الصرامة يرافقهما سي علال والارتباك يبدو على وجهه، ارتباك وخوف ومسحة حزن، اعتقد ياسين أن مكروها حدث لأيمن، لكن الضابط بادرها بالسؤال عن أسامة.

- هل تعرفان أسامة الوردي؟

- أكيد فهو طالب معنا في هذا البيت.

- متى كانت آخر مرة تراه فيها؟ موجهًا السؤال لياسين.

- قبل شهرين تقريبًا، غادر دون أن نخبرنا أين وجهته. هل هو بخير؟

- أين نجد عائلته إذن؟

- إنه من نواحي مدينة تزنييت من منطقة مير اللفت. هل هو بخير؟

- لا، لقد مات قبل يومين، مات مقتولاً في قرية أورير وعليه آثار اعتداءات كبيرة، كان مع شبكة للسياحة الجنسية رفقة مجموعة من الشواذ البلجيكيين، ويبدو أن أحدهم أربع السياح في حفلتهم وقتل منهم سائحين وثالثهم هو أسامة، الحاصل أنه مات.

- فليرحمه الله تعالى.

فتش الضابطان غرفة أسامة، وأخذ كل ملابسه وحاجياته، ولكن الأوراق ظلت بحوزة ياسين وأيور، بعد مغادرة الجميع خيم صمت ثقيل ثقل الموت على صدر أيور الذي بدأ يطالع يومية لأسامة كتبها أثناء رحلة له، عاد شريط الذكريات بأيور إلى عهده بأسامة الذي كان يحكي له بغموض عن حياته الثانية وعن مصدر الأموال التي كان يحصل عليها، وعن قيمة الشرف التي كان يناقشها وهو يهذي.

اليومية كانت خاطرة بأسلوب هادئ حد الوجد، أن تتحرش بك جمل شخص توفي للتو، لم تصدق بعد خبر وفاته وتبدأ في القراءة له ولأول مرة فهو شيء مؤلم حقاً، لن تشهق أبداً ولن تتنفس قبل أن تتم القراءة على عجل، بحثاً عن الحياة في الموت، تريد فقط أن تفهم لم ينتهي أسامة مقتولاً على شاطئ صخري رفقة شواذ بلجيكيين.

«البحر والصخر وأنا والنوارس، أعصاب باردة وخيال هادئ.»

ماذا أريد من اللحظة غير هذا؟ رأسي فارغ من الحياة إن الحياة لا تملأ رأسي، ما يملأه هو صوت تلاطم الموج على الصخور التي تزداد إما حدة أو ليونة، كذلك تفعل بنا الحياة، بأيامها الأمواج العاتية، إنها تضربنا دون هوادة، ونحن نتقوى مع كل ضربة وكل موجة، تصبح حواشينا مستديرة تهادن الموج وكأنها أقمار حطت على الأرض، ولكن أحياناً ننكسر من شدة التلاطم فتزداد حدة وشراسة، كلما ضربت بقوة ازدادنا شراسة وحدة.

إنها الحكمة النابعة من الصخور والماء، علاقة الحب العتيقة بينهما، علاقة الحب المتوتر بيني وبين الحياة، ارتاحت أعصابي من التوتر، ها هي الحياة إذن جنبي مستسلمة تضع رأسها على صدري الذي يتبرد برذاذ الماء الناتج عن علاقة الصخر بالبحر، شعرها المنسدل على كتفي ينام أيضاً في هدوء، هدوء حورية عمرت الأعماق طويلاً واستقالت من عالم الجواهر والكنوز المادية، وتريد صدري فقط، تضع أذنها قرب قلبي، فهي قبل أن تتمدد بجانبي تختار الجانب الأيسر من وجودي، وأنا ألفها بذراعي اليسرى وأقبلها على رأسها، أعلى الجبهة بحنان، بحنان فقط.

تصالحت إذن مع الحياة، مع الحب، مع الأشياء الأخرى وأنا عارٍ من الارتباطات المادية، عارٍ من الهاتف النقال الذي تخلصت منه، عارٍ من الرغبة الجنسية التي تجعلني حيواناً أليفاً في يد الحياة، عارٍ من العمل والتزاماته، عارٍ من كل شيء إلا مني، يستحيل أن أتعرى مني.

أختار ظل صخرة ناتئة من الحائط الصخري، أدخلها فإذا هي كهف صغير صنعته مياه الأمطار، وأحط رأسي على صخرة مستديرة دون حواشي حادة، مستسلماً مثل أهل الكهف لغفوة نهائية هادئة، لا شيء يملأ رأسي من وجع

الأيام أو ضغط الوقت، أضع رأسي الفارغ على الصخرة، وأنام، مثل أهل الكهف المطمئنين إلى أنهم لن يستيقظوا قبل عمر، أحتاج غفوة فقط، غفوة قصيرة من عمر الزمن لأحلم حلمًا صغيرًا وجميلًا، كأن أحلم بحورية البحر تخرج من بين الأمواج وترشني برذاذ الماء من شعرها المجعد الطويل، لا أريد أن أراها عارية أريد حلمًا رومنسيًا جميلًا فقط، يمكنها أن تحدثني عن حكايات البحارة والصيادين والحوت الكبير ويونس عليه السلام، لكني لا أريدها أن تتحدث عن ثقب الأوزون وكتل الجليد في القطب المتجمد وعن نشاطات الجمعية الخيرية خلال السنة القادمة، أعرف أنها تحب ذلك، ولكني لا أريد أن أسمعها تتحدث عن الحياة.

لن ألتقط لها الصور، إن التقاط الصور يفسد اللحظة، الجمال يخزن في الذاكرة الحية، لا على الحوامل الإلكترونية، الحورية لا تحب فلاشات الآلة المصورة، وأنا كذلك لا أملك عقلية السياح الأغبياء أريد أن أعيش اللحظة تحت رذاذ الماء المرشوش بشعرها وهي ترميه إلى الورا.

لماذا أقول إن السياح أغبياء؟ ها أنا أتجابه مرة أخرى مع الحياة، السائح يضع المرهم على ظهر زوجته ويطلبه بيديه وأنا أعتبره غبيًا، ها أنا أتشبت بالرؤية الأحادية للحياة، وها هي الحياة تنتصر عليّ مرة أخرى، هل كنت أريد هذا المكان لي وحدي؟ إن حكمة الصخر تقول بآلا أنظر إلى السائح كدخيل بل أعتبره شيئًا من هذه الموجودات كالريح والنوارس والموج الهادر والحجارة المصقولة ورائحة جثث الأسماك المتحللة والصلطعون على الصخور.

لقد قررت إذن أن أغفو دون حلم ودون رأي في طريقة دهن السائح لظهر زوجته وأردافها، من يدري فقد يتسلل المشهد إلى حلمي وأفقد بذلك حيادي مع الحياة التي استقرت إلى جانبي في تعادل سلبي، لا غالب ولا مغلوب، أضع نظاراتي الشمسية السوداء وأستلقي على منشفة زرقاء ذات رسوم الدلافين الوديعية الأكثر زرقاة ودوائر بيضاء مختلفة الحجم تمثل فقاعات خارجة من فم الدلفين الأصغر، سأغفو دون أن أشعر بذلك ولو أنني قررت من قبل.

إن هدير الموج هو الذي يغطي على الضجيج في رأسي، بل الأخرى أنه يدفعه إلى الخارج عبر الأذنين، الهدير رتيب وجميل ويتكرر نغمه وليس كالفرحة والبقبة والانفجار الذي تحدثه محركاتي الداخلية داخل جمجمتي. النورس ليس قلقًا مثلي، طيرانه يدل على ذلك، فهو لا يغير اتجاهاته كل مرة، بل يسير مع الريح، وينتهي حركة جناحيه كأنه يرقص، يرقص في الهواء كأنه يكتب أغنية على جسد الريح، أو ربما يقرأ رسالة على سطح ماء البحر، ربما يتبع الحروف على الموج ليقرأها دون أن يهتم للنقط ولا علامات الترقيم. يصعد، يهبط، يدور نصف دورة، دورة كاملة يتأرجح، يطير في خط مستقيم، يعاكس نورسًا آخر، يصنعان دائرتين متقاطعتين، إنه يعيش حياته ملء الأجنحة.

أنا لا أريد أن أكون نورسًا، إن الحلم الذي يسكن البشر، الطيران، لا يسكنني أنا، ولا أريد أن أعيش ملء الحياة، أريد فقط أن أستكين قربها، أعاشرها بالحسنى، برذاذ ماء على صدري العاري، العري يحدد حجمنا الحقيقي على هذه الأرض، ويعلمنا احترام الآخر، فوراء اللباس يختفي الإنسان الحقيقي،

الأقمصة والتنانير والأقمشة هي التي تغذي التراتبية والفروقات وتميز إنساناً عن إنسان وطبقة عن طبقة، ومديرًا عن عامل، وطالبًا عن أستاذه؛ لذلك كي نفهم بعضنا علينا أن نتعري. وأنا أريد الآن أن أتعري، على الأقل من الأفكار السوداء التي حملتني إياها الحياة، أريد أن أخلع عيني رداء السواد المظلم، ولا أرتدي شيئًا غير جلدي الطبيعي مزخرفًا برذاذ الماء المنفلت من الشعر المجعد لحرورية البحر ذات العيون الزرقاء الرمادية».

كثير من الخربشات الأخرى على دفتر أسامة، كان منظمًا جدًا إلا في كتاباته، يكتب كأنه يسعل ليتخلص من الضغط، وكانت مذكرة مواعيده حافلة بلقاءات غريبة، فليرحمه الله، فليرقد بسلام ولنقل أنه مات بعد صراع مرير مع الحياة، ما الذي كان يخطط له؟ لم كان يستعمل وسامته الذكورية ويبيعها باليورو؟ لم كان وحيدًا طيلة أيام حياته؟ أسئلة يطرحها أيور على نفسه ولا ينتظر خروج أسامة من المشرحة ليجيبه عليها، كان يردد بعد كل تنهيدة فليرحمه الله.

خربشات أخرى:

«لا، لن أستمر في العبث بنفسني، أنا لست شاذًا، صديقتي تثق بي، لكنني أحتاج مالًا، أريد أن أعيش كما يعيشون».

«مارك لا يفهم أنني لا أبيع نفسي، قد أمضي معه الليل كله دون أن يلمسني، يبدو عجوزًا لكن العنف يسيطر عليه، أبيع بعض جسدي لا كله، عليه أن يفهم ذلك».

«منظم الحفل أرادني بين المدعوين ليتباهى بوسامتي بين أصدقائه، سأحضر وأشرب وأسكر ولكن الويل له إن تجرأ على القوادة لي، أو جعلهم يعتقدون أنني تحت تصرف علبته الليلية».

«أكادير مدينة عاهرة، أتمنى أن تغرق في المحيط».

«قال فهد أن اسمي أسامة وأتمتع بالوسامة، كان رجلاً لطيفاً، أحبني بصدق كبير».

«ليتني كنت مثل أيور وياسين».

«كان منظري مثيراً للشفقة وأنا أطلب من ماركو ألا يفعل، لا أريد أن أكون أنثى».

هذه الخربشات التي يقرأها ياسين وأيور توجد خارج منطوق إحساسهم ولا يكادون يصدقون أو يفهمون مغزاها، لكن أكادير مدينة عاهرة حقاً، قرر الصديقان حرق كل أوراق أسامة قبل رحيلهما، مذكراته، خربشاته على هوامش الدفاتر، مواعيده ولائحة هواتف معارفه أو بالأحرى زبائنه.

## - ٢٣ -

رن هاتف ياسين وظهر رقم مجهول على شاشته، أجاب في غمرة ارتبائه من تسارع الأحداث وكانت كريمة على الخط، ما أن فتح الخط حتى بدأت تصرخ بأعلى صوت:

- عليك أن تفعل شيئاً، أنقذني من هذه الورطة البئيسة.

- ما بك كريمة، أنا راحل اليوم.

- لا ترحل قبل أن أراك، لنقل طواف وداع.

- لا، أفضل ألا نلتقي.

- علينا أن نلتقي.

- لا قلت لك لا.

- عليك أن تجد حلاً، قبل أن يكبر ما في أحشائي، عليك اللعنة.

- ماذا تقولين، ما الذي في أحشائك.

- لا شيء غير أن ليلتنا لم تكن محسوبة وأنت لم تحتط لأي شيء، تحمل مسؤوليتك.

ما هي إلا دقائق حتى هجمت كريمة على البيت وهي تصرخ في وجه ياسين، وبعد انسحاب أيور قالت وهي غاضبة وشاحبة اللون كأنها خرجت من قبر:

- تريد أن تذهب وتتركني في هذه الورطة وحدي، جد حلاً، خذني معك، سيقتلني أخي أو يدفنني حية، وأنا بنفسني أريد أن أموت، أريد أن أنتحر، هذا ابنك أنت، لا أعرف غيرك.

الدهشة والخوف وأطنان من الغضب، ياسين يريد أن يختفي من على سطح الأرض، اللعنة على إبريق الشاي الفائض، جلس إلى الأرض ومسك رأسه بين ذراعيه، دون أن ينظر إلى كريمة التي دخلت نوبة بكاء هستيري كئيب.

الفوضى ملأت البيت وقد كان الباب مفتوحاً فسمعت راضية ما حدث، فهي تحترف التجسس أمّا عن جدة، فهمت ورطة ياسين وكريمة لذلك نزلت السلم الإسمنتي ودخلت عليهم البيت دون إذنهم، ورمت كريمة بنظرات شرزة سرعان ما تحولت إلى نظرة شفقة، كريمة فتاة آيلة للموت، تحتاج أي حائط تستند عليه، راضية التي رغم أنها لم تنجب بناتاً فهي تستطيع فهم معنى الحمل غير الشرعي، أخذتها بين يديها وحملتها لبيتها.

- سنجد حلاً لكل شيء، عليك فقط أن تتحملي الأوجاع، سنسقط الجنين عند مولدةٍ أعرفها جيداً، وستتعافين بسرعة، الطيش له قواعد أيتها الحمقاء.

شعر ياسين بالثلج ينهمر عليه، نظر إلى كريمة نظرة انكسار، تمنى لو لم يعرفها قط، لو لم يلمسها أبداً، شعر بالشفقة عليها وعلى نفسه، انسحب من المكان يبحث عن أيور الذي فضل الصمت ولم يعلق على الحدث، كان ينظر فقط بعينيه الشاردتين، حساسية المشهد لا تجسدها صورة، الجنين روحٌ منه

ومنها، لو تحدّث لقال ذلك، فبنيتة الفكرية مثالية حد الموت، فكان عليه أن يصمت فقط وينظر.

غمزت راضية ياسين بعينها اليسرى، دلالة تفهمها لوضعه، وتحكمها في الوضع، لكنه كان قد دخل دوامة من التفكير السلبي التي أسقطته في حفرة عميقة لها قرار واحد هو الاستسلام للأمر الواقع.

غادرت كريمة رفقة راضية في هدوء جنائزي، كأنها شاة مساقاة للذبح، شابة في عمر الفرح تحمل في أحشائها جنين المتعة العابرة ونصف النشوة، كانت التفاحة التي قدمتها مسمومة ولكنها تناولت منها قضة قبل الرحيل، نظراتها المستحيلة تجاة ياسين الذي يجر أذيال البؤس العميق، لم تتوقع منه شيئاً ذا بال، توقعت فقط أن يحتضنها بحنان زائد عن العادة، لكنه كان رجل الأرض الباردة، فاستكان لجلسة حارقة في الممر الضيق لبيت الطلبة، ماسكاً رأسه بين ذراعيه وضاعطاً عليه بقوة. فكرت في أمها كثيراً، فكرت أن تلجأ إليها كما تفعل دومًا، لكنها تعلم أن الأم قد تموت من هول الصدمة لا خوفًا على ابنتها بل خوفًا من الأخ الأكبر، الذي قد يغسل الشرف بسطل الدم، فكرت في الهروب وفكرت في الانتحار، فكرت في الخروج من البيت فقط، لا يهمها أن تكون عاهرة بعد ذلك، أن تكون خادمة في البيوت، فكرت أن تعيش فقط، ولم يخطر ببالها أن تسقط الجنين، لم تعرف أن بالإمكان حجز الروح داخل الرحم الصغير لأنثى المتعة الصغيرة العابرة.

غادر الطلبة البيت السفلي للحياة وتوزعوا في مسارب الوقت.

أيمن يسبح في بيدر التب، ترافقه شقيقته الكبرى التي تحرص على صحته، تجالسه قرب بيدر الدوار لساعات وهو يتأمل الغروب وينتظره منذ العصر، تحدثه بالأمازيغية المحببة لأذنه، وتسكب له كؤوس الشاي الأخضر الصيني أو القهوة البلدية بالشيخ والزعتر الجبلي، يستعيد هدوءه شيئًا فشيئًا، وكي يرى التب يتذرى يذهب للبيدر خارج الدوار، ولا ينتظر أن يتخيله.

أسامة رحل، رحل فقط في طقس بائس وحزين، لكنه روح جميلة لن تشرد طويلاً، ستجيب على الأسئلة الشفوية لملائكة الرحمة وتدخل الجنة، انتهى على شاطئ البحر، ممرغاً في الرمل والبيرة، ولم تكن هناك نوارس لتواريه، كان هناك صيادون فقط استيقظوا باكراً لجمع ما تلقفته شباكهم من سمك السردين، فوجدوا مذبحاً جماعية لحفلة شواذ جماعية. لم يكن هناك أحد ليتسلم شهادته الجامعية حين كان العميد ينادي عليه، فقد كان الأول على الفوج بمعدل عالٍ يؤهله لكليات الهندسة، ولكنه تأهل دون امتحان لمدرسة الموت، ورحل فقط.

كريمة فقدت بريق عينيها، حل الصمت المطبق محل الحركة الطفولية البريئة، تسير كأنها خائفة من الهواء حولها، رسبت في امتحانات آخر السنة، وانكششت على جسدها في البيت، تتقبل كل السلطات التي تحد من حرقتها، تنفذ أوامر الأخ الأكبر ووصايا الأخت الكبرى التي أصبحت تصطحبها للجلسات الدينية، وانخرطت معها في منهاج العدل والإحسان، ولكنها ظلت تلتهم الروايات الحزينة وتبحث عن نفسها بين السطور.

ياسين هاجر بعد زواجه من ابنة خالته إلى فرنسا، هي كانت تحتاج رجلاً تثق به من أجل المحل في الضاحية الباريسية، «ميني ماركت» لبيع المواد

الاستهلاكية.

أما أيور فبقي شاعرًا، ولج مدرسة المعلمين وتعرف على فاطمة وتلك قصة أخرى...

ما زال حنظلة على جدار الغرفة يدير ظهره للتاريخ، قصائد خليل حاوي فقدت وهجها من شدة الحزن، أما نظارات محمود درويش فما زالت تلمع، وحين تنظر إليها تسمع دوي القصائد، تسمع على الخصوص: أنا لست لي. تشي جيفارا هناك أيضًا سيستقبل قلوبًا جديدة في السنة القادمة، قلوبًا غضة ترى الحرية شعارًا لها وترتدي الكوفية الفلسطينية وتتعاطف مع كل مضطهدي العالم.

انتهت في تارودانت

صيف ٢٠٠١

ونمت بعد إتمام القراءة أو ربما قبل ذلك بقليل، شعرت بأني أضع نقطة نهاية لمرحلة من عمري، البيت الذي يعرف ميلاد طفل يعرف تغييرًا لمعنى جميع الأشياء التي يحتويها، ومنها هذا الدفتر الذي اكتسب فجأة قيمة كبيرة.

يا له من دفتر، ويا لها من أيام.

تسيل تسيل تسيل بين الأصابع، أتحدى من يستطيع القبض على الزمن، الأمر مخيف جدًّا؛ إذ كيف نتوقف لتأمل؟ الصورة تفعل ولكنها أيضًا تتقادم مع الأيام، ياسين عاد من باريس التي بدأت تفقد أنوارها شيئًا فشيئًا، هاتفني وطلب مني أن نلتقي، اشتقت إليه كثيرًا، ربما غيابه جعل نقطة الرزانة

والثبات تنتقل مني إليه، تبادل أدوار في آخر فراق بيننا جعلني أبدو في حاجة إليه أكثر مما كان في حاجة إليّ خصوصًا مع بداية تخبطه في المشاكل.

كلما التقينا شخصًا عادت لنا طبائع من شخصياتنا التي كنا عليها عندما كنا معه، وقد نعود صغارًا، ونحن نحادث صديق طفولة أو مراهقين، ونحن نحادث صديقًا من أيام المدرسة، وربما نحن نرتاح حين نلتقي شخصًا كان لنا حضنًا ذا شقاء، وقد نشقى بمصادفة شبح كرهنا عشرته والساعات التي أمضيناها معه.

واستيقظت صباحًا، وأعددت ما قد تحتاجه زوجتي لفطور صحي، وهو يوم بمعنى جديد تمامًا، الشمس لم تشرق بالطريقة العادية، أشعتها فيها شيء من ابنتي، والأرصفة تقفز فرحًا وأنا أسير عليها كأب، ودراجتي انصلحت من تلقاء نفسها.

تناولت فاطمة نصف الكمية التي أحضرتها لها، وطلبت مني الذهاب إلى مطعم مخصوص وأنتظر هناك إلى أن يعددوا طبق اليوم وأحضره لها، طلبها كان غريبًا وكانت تصر على أن أنتظر طوال فترة إعداده.

وزالت غرابة الطلب حين لمحت ياسين في زاوية من زواياه.

والتقينا.

كان يتحدث بالتفصيل عن كل ما حدث منذ آخر مرة التقينا فيها، وقد يعود إلى ما قبل آخر مرة، وأنا أعد في ذهني حكاية أجعله يعتقد بأنها ما حدث لي

فعلًا منذ أن افترقنا.

كان يتحدث بحماس، لنقل بحماس زائد، ربما كان يتحدث فقط بطريقة عادية ولكن بالمقارنة معي أنا الذي كنت تحت مستوى العادي بدا لي متحمسًا جدًا، ربما كان فعلًا فرحًا بلقائنا، هو فرح بلقائنا واضح جدًا ولكن، أنا أسقط عليه أحاسيسي البائسة المريضة بسوء الطوية.

مع متابعتة للكلام واسترساله في تذكري ببعض المواقف والذكريات التي جمعتنا، بدأ ينجح في كسر حاجز الزمن المتكلس بيننا، توقف للحظة ربما حين اكتشف عدم انخراطي في حديثه منذ البداية.

توقف ليقول لي:

- توحشتك يا صاحبي.

أنا أيضًا توقفت فجأة وركزت عيني في عينيه، نظرت إليه جيدًا ما زال محتفظًا ببريق الصداقة القديم، ما زال كما عهدته، نظرت إليه من جديد، امتلأ جسده، غزت لحيثه وجنتيه، لقد كبر حقًا، قميصه الكلاسيكي الأزرق، أزواره المغلقة عند الكمين وسرواله، الثوب الأسود كل شيء فيه عادي وجميل، توقفت مرة أخرى لأنظر إليه في كامل حضوره، ماضيه، علاقتي به، الجولات، الملاحظات والقصائد، الذكريات، الحنين، نعم هو الحنين المشترك بيننا.

كل شيء يؤول إلى الحنين.

غيرت نظاراتي فجأة فبدأ لي ياسين نجمة من النجوم المضيئة في حياتي،  
يضيء المقهى بكل ما يحمله اسمه من عوالم نفسية ومواقف.

قلت له:

- صديقي اشتقت لك أيضًا، فقط سامحني.

عانقته من جديد، كأني ألتقيه لأول مرة، رغم مرور نصف ساعة على جلوسنا  
بالمقهى نحتسي الماضي القريب البعيد، عانقته من جديد أحسست به يضع  
رأسه على كتفي بحنان زائد، هل كان يطلب الحنان أم يعطيه، أحسست  
للحظة أن قوتي تنهار، أنا أيضًا في حاجة إليه، تمنيت أن يضغط عليّ بقوة  
أكبر، وفعلت أنا أيضًا، لوح كتفه ممتلئ، كان يتشبث بي، ويقبل كتفي.

أغلقت عيوني لأشم رائحة صداقة معتقة، هي نفس الرائحة التي تنبعث من  
المطبخ المشترك بيننا، من الملابس المتبادلة، ومن الأحذية الرياضية التي  
نستعيرها من بعضنا بعضًا، صداقة معتقة كنبذ إنجليزي دفعته إلى الوراثة  
لأرى وجهه من جديد، كان هو ياسين نفسه، وأنا كنت متحجرًا في اللحظات  
الأولى للقائنا، عاد يحضني من الجهة اليسرى بقوة أكبر.

يقال إن عفن القلوب وصدأ البعد وكلس المسافة يمحوه عناق حار، فبعد  
البحر والرمل والضباب والقطار والشمس يكون اللقاء، فأعدوا له ما استطعتم  
من قوة ومن عمق الإحساس، لا تختاروا الكلمات قبل الحدث دعوها تنساب  
بتعثر، بسلاسة، برعشة، دعوا الجسد يعبر واصمتوا وأنتم تحضنون، غيبوا  
وأغلقوا عيونكم واجعلوا شريط المسافات القديمة يذوب في لحظات، لا  
تحدثوا عن الماضي وما فات، انظروا إلى بعضكم البعض فقط.

جلسنا لنعيد حوارنا من جديد كأن عناقنا كسر جليد سنوات من الغربة واليتم  
وسوء التواصل.

- نعم يا صاحبي، اشتقت إليك كثيرًا.

نحن دومًا كذلك، لا نعرف قيمة الشيء إلا حين نفقده، ياسين لم أفقده تمامًا  
لكنه غاب لظروف خاصة جدًّا، لم أستطع تقبلها في حينها، لم أجبه على  
تعليقه بالسرعة المطلوبة لأنني كالعادة كان لي حواران، حوار معه وحوار مع  
نفسي، قلت له بعد برهة:

- أنا أيضًا اشتقت حضورك إلى جانبي، لكن أن تكون بخير يغنيني عن الشوق  
إليك، تصلني أخبارك متفرقة ولكني كنت أعلم أنك بخير وأنت تمضي في  
حياتك.

كان تبريري مقنعًا لكنه لم يكن كافيًا، هناك أشخاص غيابهم يسبب صدمة في  
حياة الإنسان، أشخاص من فرط تقاطع حياتك مع حياتهم، تعتقد أنهم لن  
يرحلوا عنك أبدًا، وأنهم خلقوا ليرافقوك في مشوار حياتك، رحيلهم المفاجئ،  
غير المرغوب فيه، الصادم كحادثة سير مفاجئة، يسبب لك احتباسًا عاطفيًا،  
فلا تنفعل حقًّا، آنذاك تبحث عن مبررات لنفسك ولهم، وغالبًا ما تكون عبارة  
ظروف الحياة مشجبًا نعلق عليه تلك الحوادث الطرقية.

حين أتذكر الأيام التي تلت مباشرة زهاب ياسين إلى فرنسا، أو انسحابه من  
حياتي، أشعر بالحيرة، ما كان عليّ أن أعتبره انسحابًا؛ لأن القرار مرتبط به  
هو لا بي أنا، بأي حق كان عليّ أن أمنعه؟ حينها فقط انقلبت الأدوار، فأنا الذي  
كنت عنوانًا ثابتًا أصبحت في هيئة طفل، أتذكر كيف عبرت له عن مشاعري

آنذاك واعتبرتها خيانة عظيمة لدولة صداقتنا، ولكن من وجهة نظر حقوقية لم يكن من حقي تحميله المسؤولية، كان رحيله غيابًا اضطراريًا، جعلته بتحويل نفسي بسيط نفسيًا خارج ذاتي، تخلصت منه إذن بسرعة بحركة عاطفية حين جعلته خائنًا لم يستشرني في قراره.

كم كرهت نفسي بعد ذلك، خصوصًا حين توالت اتصالاته بي، رسائله الإلكترونية التي لم أعرها اهتمامًا لاعتقادي الجازم آنذاك أنه ارتكب خطأ كبيرًا لا يغتفر، كذلك ربما تخلصت من عذاب الرحيل، الاتصالات المتكررة قبل أن يطيب الجرح، تزيد من الألم، بعد أن أعيتته المحاولات، انقطع التواصل وكانت السكينة، رغم مناوشات الذاكرة وحضوره العابر في حواراتنا وجلساتنا العادية. أي صداقة هذه التي تحولت إلى ارتباط نفسي، كيف جعلتنا ثلاث سنوات من الدراسة روحًا في جسدين.

- أردت أن أحكي لك عن كل شيء قال.

- وأنا أريد أن أسمع منك كل شيء، انفتحت شهيتي للاستماع إليه، كباب مصروع عن آخره، وتمسكت بموقعي القديم، المستمع الجيد، وانفتح باب جديد، لم يكن لانفتاحه أزيز مزعج، بل كان بالعفوية القديمة، كأن الأمر يتعلق فقط بإلقاء تحية عابرة، كلي آذان صاغية حتى يدي، تصغيان إليه، عيوني، أنفي، صدري، كل منطقة مني كانت تصغي إليه. كلي آذان صاغية ما أروع هذا التعبير البليغ حد المطابقة، كلي آذان صاغية ... بكل هذا الحماس إذن.

ابتسم ابتسامة عريضة، بل ضحك ضحكة كبيرة، ولكنه لم يجد منطلقًا لحديثه، أعرف هذه الحالة جيدًا، حين تكون ذاتك مزدحمة بالأفكار

والأحاديث، وقلبك أيضًا يكون مكتنظًا، فلا تسمح فكرة لأختها بالمرور، بل تتسابق الذكريات للعبور عبر جسر الكلام، كذلك كان ياسين وهو يتلعثم، محاولاً استغلال فرصة إنصاتي له، والحق أنني أرغب في سماعه بعيدًا عن عتابنا القديم، أرغب في سماع سيرته الذهنية على الخصوص أريد أن أكتشف ما فعلته به السنين، ما فعله به الزواج، ما فعله به المال، وخصوصًا ما خطته الغربية على شخصيته، فالغربة كاليتم تضع على وجه الإنسان طبقة غريبة من الحنان كأنها سحاب ممطر يغطي السماء بالحب والعطف والدفء، تضع خطين متوازيين على الجبين، خط الحاجة إلى صديق عمر بمثابة أب، وخط الحاجة إلى صدر أنثى بمثابة أم، وأنا اليتيم من جهة الأب احتجت صديقًا أعلق عليه قلقي وغررتي، وياسين الفاشل في علاقته مع النساء، كان يعتبرني دون قصد أمه، خصوصًا بعد توتر علاقته بأبيه ومغادرته للدوار.

تحدث ياسين عن كل شيء، عن عمله، عن زوجته وابنتيه، حكى الكثير من التفاصيل عن أمزجة الفتاتين، اكتشفت أنه مرتبط جدًا بأسرته الصغيرة، لم يفعل الزواج به إذن غير أن جعل منه رجلًا عظيمًا.

أحبت دومًا ابتسامته، أسنانه البيضاء المتراحة، سمته الخفيفة جعلته أوسم وجعلت ملامحه مليئة ومتوازنة، عينان سوداوان تحت حاجبين كثيفين، أنفه المستقيم يتوسط وجهه المدور الممتلئ، لماذا أنظر إليك يا ياسين بكل هذا الإعجاب؟ تفاصيل حياتك تناسب تفاصيل ملامحك، كل شيء فيك مطابق لك، حتى كلامك ومعجمك، توقيت ابتسامتك، تطلعك إليّ وانتظارك حكاياتي، لمسات يدك وقبلتك على كتفي، اقترابك مني واحتضانك المتكرر لي، كنت تمرر يدك على جبيني، كما في الماضي حين تجدني ملقى

على فراش الحزن والقلق، كنت تمسح المائة والإحدى عشر المرسومة على جبيني، كنت تمسحها بإبهاميك، تمررهما على حاجبي، فحاجبي عنوان غضبي، وكأنك تعلم بالفطرة أو بطول المعاشرة، أن تبعثر شعر الحاجبين فوق عيوني الصينية الضيقة مظهر من مظاهر غضبي وتبرمي من الحياة والفرح، كنت تعدّل حاجبي في شبه تدليك أبوي، أحببت ذلك.

كلما اكتشفت ياسين أكثر لمت نفسي بقوة أكبر، ولكن هذا ما يحدث لنا مع الأشخاص الذين نحبهم، ويصدمنا غيابهم الذي لا نتقبله بطريقة عادية بل نتطرف حد اعتبار الآخر خائن صداقة، بل واتهامه بتدمير الهرم وتحميله الصائر العاطفي.

وما يبني على الاعتقاد الأول نسير عليه؛ لذلك فاللبنة الأولى والتي كانت إقصاؤه من مفكرتي هي المسؤولة عن العمارة ككل، وعن كل الكلس المترسب والصدأ المتكون والطحالب النابتة بيننا.

وكان البعد، البعد قاسيًا جدًا، أن تفصلك مسافات كبيرة مع من تحب، فتلك قطعة من عذاب، خصوصًا إن كان عن رجل كياسين ملأ سنوات من وجودك.

أحيانًا أقول في نفسي وكما حلت فاطمة ما أحكيه لها عنه أن رد فعلي المتطرف تجاهه في الأيام الأولى لرحيله ورفض الطفولي عدم الاستجابة لمكالماته الهاتفية مرده حركة نفسية وقائية ضد انهياره بابتعاده، كان يسهل عليّ اعتباره صديقًا خائنًا على أن أعتبره صديقًا راحلاً، اليتم يفعل أكثر من ذلك، حين تجد ذاتًا تحضن احتياجك القديم تتشبث بها بكل قواك، وكانت فاطمة تعرف كل شيء عنه من خلال الحكيم المستمر، منذ أن تزوجنا بدأت

أستجمع ما في ذاكرتي من شظايا وأحكي لها كل شيء، هي الآن تعرف مع من تعيش، وراء بذلتي الرمادية هذه التي تخدع الجميع، هي لا ترى سطح المدينة بل عمق الوادي، وهي كانت تعرف أن للصدقة عندي روافد واقعية تجعلني متشبثًا بكل ما يردني من نفحات صوفية.

أحيانًا ننكس المرايا داخلنا، فلا نستطيع النظر إلى الاتجاهات الأخرى، دون أن ندور دورة كاملة أو نصف دورة على الأقل ضد عقارب الصدقة.

الصدقة الصدقة الصدقة تعويض عن كل شيء، عن انكسار المرايا، عن يبس الورد عن احتراق الأيام، عن جفاف الأنهار، عن تساقط زهر الرمان، هي الرمان نفسه، بمفعوله المزدوج كغذاء وكدواء، كترياق مضاد لنوبات الحزن، يكفي أنه كان شجرة رمان سخية، ينبع منها نور أحمر يبعث على الاسترخاء، ياسين كان كدفع الأسوار الطينية في شتاءات تارودانت الباردة، حين يصمت كل شيء فلا تسمع غير زخات المطر وصوت ياسين يعد البيصارة بزيت الزيتون والكركم، ويغلي الشاي بدل النعناع، كل الروائح تنبعث من الذاكرة، تحضر المرايا لتعكس صورًا كثيرة كأنها ياسين صورة الصديق في إطار كبير، صورة الأب، صورة الأخ الناصح، صورة الطبيب، صورة المريض، حين يضع يده الدافئة على جبيني وأنا أهلوس بسبب ارتفاع الحرارة، هو مغرم بالأعشاب الطبية، إبريق الشاي والزعر مرآة أخرى تعكس قلبه الكبير، وقد علمني ذلك، وكلما أحسست أنه مريض بمغص بسبب ما نتناوله دومًا من أكلات خفيفة، أعد له شايًا بالأعشاب المنوعة.

رد فعلي لم يكن سوى حركة مضادة للزمن، كما تقول فاطمة، وقفت علاقتنا برهة ثم أعادتها لقوتها، أكيد أن ذاكرتي ستسعفني، فأنا لا أملك غيرها، هي

دائمًا تسعفني وتحارب دون هوادة، لتعيد لي صور الماضي وتضع لها  
الإطارات المناسبة.

الكثير من الليالي القاسية كنت فيها مع ياسين في مواجهة الحياة، في  
مواجهة الموت، لا تنسى، أكيد أن هناك أنهر مشرقة جمعتنا، ولكن القسوة  
تنطبع بقوة في الذاكرة، فمواقف المساندة في حرب الألم أقوى من مشاركة  
نكت الفرحة القليلة.

هذه الأشياء كلها لم تكن آنذاك تبدو بهذه النوستالجيا، بهذا الحنين، وهذا  
الثقل وهذه الحمولة، بل كانت عادية في زمن المشاركة، أما الآن وقد ابتعدنا  
مسافة كافية للنظر، فيبدو الأمر مختلفًا، فالإحساس الذي يخامرك وأنت  
تنظر إلى إبريق الشاي وأنت جائع ومتوتر ومنشغل بالدراسة ليس نفسه الذي  
يداعبك وأنت تتذكر أن من صنع الشاي رجل من زمن الفروسية يجلس إليك  
في المقهى ويحدثك عن زوجته وابنتيه.

اكتشفت فجأة أن ما قدمه لي ياسين أكثر بكثير مما قدمته له، وأني لم أقدم  
له شيئًا، أني لم أقدم له شيئًا يذكر، ربما لأنه كان أكبر سنًا مني، وأنني كنت  
أحمّله مسؤولية السنوات القليلة التي كانت تفصل عمرينا، ربما أيضًا لأن  
تقبلي الأخوي لنصائحه، وضعنا في علاقة عمودية، كان عليه باعتبارها أن  
يعطي أكثر مما يأخذ.

وحتى عندما قرر الهجرة أعطاني فرصة للغضب على طريقتي.

أنظر إليه مرة أخرى بكامل تاريخنا أحسست برغبة جامحة في تقبيل رأسه،  
باحترامه بقوة، أحسست برغبة في البكاء، في البكاء بشدة، لكنني لم أفعل،

طلبت منه فقط أن يضع يده على جبيني وأن يقرأ سورة الفاتحة، فعل ما طلبته منه دون تردد، بل ابتسم ابتسامة عريضة، هو لا يطرح الكثير من الأسئلة، ولا تؤرقه الأجوبة الغامضة الحائرة.

ضع يدك على رأسي، وامنحني بعض السلام، احقن دمائي بأخوتك القديمة، وأدخل على قلبي بعض الفرحة، إقرأ سورة الفاتحة، إقرأ كل ما تيسر لك.

منذ أن جلس إلى جانبي وأنا أتفرس في ملامحه، أريد أن أطلع على تفاصيل روايته، ليس فضولاً بل شغفاً بحضوره المطمئن بجانبني، قبل مجيئه لم أكن أعي احتياجي له، هل يمكن أن يحدث هذا مرة أخرى، أن أصبح كفصيلة الدم الأنانية، آخذ ولا أعطي، هل عدت إلى إفكي القديم في اعتمادي عليه؟ الآن سأغلق عيوني وأترك يده على جبيني يتمتم بالذكر الحكيم، سأنظر إلى داخلي، إلى الظلام وسأستشعر نور حضوره يتسلل إليّ، يا رجلاً لعب كل الأدوار، بحضوره، بغيابه، بمزاجه الثابت، بوقوفه كعلامة طريق واضحة الدلالة، هو مثل ماء النهر في صفاء روحه وطيبة قلبه، صحيح أن احتفاظ الذاكرة بتفاصيل بعض الناس ليست من قبيل الصدفة، عيناه ثابتتان كالعزم، متشبثتان باليقين، استيقظت من غفوتي وكنت سعيداً، ابتسمت فقط، ملء روحي، ابتسمت بعمق وقلت له:

- ألا تنوي استغلال العطلة للتخلص من الكرش، من الشحم المكسد تحت جلدك؟

- أنت أنت، أنت هنا لم تغادر صدري...

لا أدري ما الذي يمنعني من البوح، لم أتعلم منه المكاشفة، هو الذي من أول وهلة يقصفك ببوحه، بنواياه، بمشاعره، ويعبر لك عن أحاسيسه، إما بلسانه أو بيديه أو باحتضانه لك، هو دائماً يتحرك تجاهك، ليحركك بحلاوة ما يعيش في داخله من صدق وحب، وأنا المنكمش دوماً أعبر إلى داخلي وأكتفي بابتسامة، ولكن هو لا يحتاج مني كثير كلام، فطلبي أن يضع يده على جبيني نوع من النداء لا ضرورة بعده للكلام، حركاتي من نوع الرموز التي تختزل سطوراً وسطوراً من الروايات، وتطوي مسافات ومسافات من التعبير، أريد أن أكون صغير الحجم، رقيق البدن كما في الماضي، ليسهل احتضاني، كيف سأستمتع بضمه لي وأنا بحجم برميل وكتفائي أعرض من كتفيه، هو يحتضن روحي الصغيرة داخل روحه الكبيرة، هو يقتلك بكلماته العفوية: أنت لم تغادر صدري، ما أجمل أن أكون داخل صدره لن يضيق صدره بي مهما ازداد حجمي ومهما نمت عضلاتي، مهما ارتقت رشاقتي، مهما تعلمت من فنون الحرب والانفلات.

بدون صداقة لا تستمر الحياة، الصديق بوصلة حياتك، يحمل عناوين المحطات الرئيسية في طريقك السيار، وحين تكون وحدك كأى قطعة، كأى جماد تشعر بالفزع بالتفاهة مهما حاولت إغناء حياتك بأشياء أخرى، كالحب والنساء، السفر والترحال، النجاح المادي والترقي المهني، فحتى لو تحققت هذه الأشياء ستجد في داخلك رغبة تدفعك للحكي، وستحتاج صديقاً، صديقاً قديماً بالضرورة، عاش معك منحنيات حياتك، من نبرة صوتك يفهم لغزك ويبتسم، يبتسم فقط دون ضجيج ودون مكر، يبتسم بفرح.

لا بد من الحكيم، الحكيم فعل وجودي، والصدقة روح الحكيم، ومرتع القص،  
فحياتك قصة، وحاضرك قصة، ومستقبلك قصة لم تقرأ بعد.

ياسين رنة من حرف السين، أفهمك ياسين، العقدة ليست بيني وبينك، إنها  
بينني وبين نفسي، أنت تابعت حياتك عادية، أما أنا فقد انكشيت على جسدي  
أروض القلق داخلي كل يوم، لا ألومك بل افتقدت آنذاك حواراتنا تحت  
الأسوار في ليالي تارودانت، هو نوع من الفراغ هاجم وجودي حينها، وثقت  
بك دومًا وبدرجة حساسيتك الإنسانية.

- ما الذي جاء بك في هذا الوقت بالضبط؟

- ألم أعاهدك على احتضان أولادك؟ جئت لأرى الأميرة.

- بعد كل هذه السنوات تتذكر عهدك؟

- العهد لا ينسى.

- من أخبرك بكل هذه التفاصيل؟

- إنها فاطمة، ويبدو أنها تعرفني أكثر من نفسي، فأرادت أن يكون لنا هذا  
اللقاء.

- أسميتها ملاك. هيا نذهب للمستشفى.

- لنركب السيارة إنها أمام المقهى مباشرة.

- ودراجتي؟

في المساء، عدت للبيت وفتحت دفترًا جديدًا، وبدأت رواية بعنوان «الشрад المقدس» بطلتها سيدة حياتي فاطمة،

يجب أن أنسى كل شيء، الآن هنا...

هنا ملاك، هنا هواء جدير بالاستنشاق.

في كيان للنشر والتوزيع، هدفنا نشر كل إنتاج إبداعي، جودته عالية، وأفكاره أصيلة، في مختلف مجالات الأدب والسياسة والصحافة والفن، باللغة العربية والإنجليزية. نهتم بالمواهب، ونرعاها، ونتيح لها فرصة الوصول للقارئ العربي، مع مراعاة أفضل معايير الجودة والاحترافية في النشر.

رسالتنا في كيان، تشجيع حب القراءة والكتابة في مصر وعالمنا العربي، وتطوير مهارات الإبداع، وتعزيز ثقافة التميز والابتكار. كُتابنا موهوبون، متمرسون، مصريون، ومن جميع أنحاء الوطن العربي، وإصداراتنا متنوعة، متميزة، مختلفة. دائمًا نرحب بالكتاب الشباب، والمواهب الجديدة، ونعطي فرصة متساوية للجميع؛ لأن مرادنا هو الارتقاء بفنون الأدب العربي ككل، والوصول بالإنتاجات الإبداعية العربية إلى العالمية .

لو تحب ترسلنا، لو عندك استفسار، لو حابب ترسل لنا إنتاجك الأدبي، سواء كان رواية، أو شعر، أو مقال، باللغة العربية أو الإنجليزية، ما تترددش. ابعت لنا على:

**kayanpub@gmail.com**

**info@kayanpublishing.com**

**أو زور موقعنا:**


**www.kayanpublishing.com**


**وللاتصال الهاتفي:**


**هاتف أرضي: -0235688678 0235611772**


**هاتف محمول: /01001872290 /01005248794  
01000405450**


ويمكنك التواصل معنا إلكترونياً على الروابط التالية، للاطلاع على كُتُبنا،  
ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية:

 [Kayan.publishing](#)

 [kayan\\_publishing](#)

 [Kayanpublishing](#)

 [kayanpublishing](#)

 [+KayanPublishing](#)

 [KayanPublishing](#)